

كتاب اليوم

قطاع الثقافة



General Organization of the Alexandria Bibliography and Documentation

956.704

LEGAL

42

١٠٢٣

٢

ألعاب السيرك السياسي

للدكتور مصطفى محمود

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعدة

الهيئة العامة لكتبة الأسكندرية

956.70442 رقم التصنيف

١٠٢٣

٤٠٦٤١ رقم التسجيل



دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة

جمهورية مصر العربية

٦ شارع الصحافة

القاهرة

تليفون/ فاكس

٥٧٩٠٩٣٠

التصميم الداخلي والغلاف

عبد الكريم محمود



National Society for Human Rights
Egyptian Association for the Defense of the Individual

السدرك
LEGAL

تقديم:

السياسة أصبح لها الآن ظاهر وباطن . . التصريحات على
اللسان أحلى من العسل ، وما تخفيه القلوب أوامر بالقتل
وتعليمات بالنسف .

ولكل سياسى عدة وجوه وعدة أفئدة يقابل بها زواره وقد
يبدل وجهه عدة مرات كل يوم ، وقد يتعامل مع الشخص
الواحد بوجهين . . وقد يضع على المائدة أوراقا ويتعامل من
تحت المائدة بأوراق أخرى .

والحكام لهم أجهزة مخبرات ، ولهم مخازن معلومات ،
ولهم مخططات معلنة ، وخطط أخرى سرية ، وخطط ثالثة
سرية جدا ، وخطط رابعة لا تكتب وإنما تنقل شفاهها من الفم
إلى الأذن بدون سميع ولا رقيب .

ومعظم ما يصلنا عن طريق شبكات الأخبار أكاذيب
ومعلومات معدة سلفا لتوزع على شعوب العالم الثالث
المرسوم له أن يعيش فى ضباب لا يعرف رأسه من رجليه .

المانشترات الكبرى المعلنة كانت تقول : إن أمريكا جاءت
على رأس ٢٨ دولة الى الخليج وأنها أثارت العالم وحشدت

البوارج والطائرات والدبابات تحت لافتة انسانية براقه اسمها :
تحرير الكويت من عدوان صدام حسين .

ولكن الحقيقة التي ظهرت بعد أن انقشع الضباب وخبث
نيران المعارك وسقط مائة ألف قتيل . . ان العدوان على
الكويت تم باستدراج أمريكي . . وأن السفيرة أبريل جلاسي
أعطت لصدام الضوء الأخضر ليخترق الحدود قائلة له : إن
أمريكا لن تتدخل لأنه لا توجد بين أمريكا وبين الكويت
معاهدة دفاع مشترك .

ومن قبل ذلك بسنوات كانت ترسانة صدام حسين
العسكرية تنمو وتكبر تحت عين أمريكا والحلفاء الأوروبيين
و بمساعدتهم .

هم الذين أمدوه بالطائرات والصواريخ والدبابات
والمدافع . وهم الذين بنوا له ترسانته الكيميائية ومفاعلاته
الذرية . . وهم الذين دفعوا به الى الدخول فى حرب مع إيران
الإسلامية .

وكان ما تبقى من الخطة الأمريكية هو القضاء على هذه
الترسانة وتحطيمها تماما ، واستنزاف الفوائض المالية العربية

التي تكدست فى البنوك الأمريكية . وافقار المنطقة العربية
وزرع الكراهية والفرقة والعداوة بين دولها بإثارة هذه الحرب
التي سوف تقسم المعسكر العربى الى جانب متعاطف مع
العراق وجانب ضده . . وإفشال الانتفاضة الفلسطينية بإغراقها
فى مستنقع صدام والتمهيد لاسرائيل كقوة وحيدة منفردة فى
المنطقة . . ثم كحصار جانبي لا بأس به . . خفض سعر
النفط . . وتشغيل مصانع السلاح الغربية وحل مشكلة البطالة
وعلاج التضخم ورفع سعر الدولار . . ورفع رأس أمريكا
كزعيمة وحيدة للعالم . . تأمر فتطاع ولا يرد لها كلام .
كل هذا كان وراء الكواليس .

أما على المسرح فلم يكن هناك إلا لافتة كبيرة مكتوب
عليها: عاصفة الصحراء . . حرب تحرير الكويت . . ثم
تصفيق حاد وهتاف عالمى وشحن مستمر لكل أجهزة الإعلام،
وأخبار تنهمر من الأقمار الصناعية على كل أقطار المعمورة
تحكى عن الحرب الانسانية . . والنجدة . . والأخوة . .
والشهادة الأمريكية ، والجيوش التي جاءت على جناح الريح
من أقصى الأرض لتنقذ شعب الكويت البائس المظلوم
المطحون .

كان الفارق كبيرا . . وكبيرا جدا . . بين ما يقال وما يفعل .
وكان ما يحدث أقرب الى ألعاب السيرك منها الى الواقع .

ولم يصدق الكثيرون هذا الكلام . .
وظلت الأغلبية على إيمان بأن أمريكا كانت الملاك المنقذ ،
وأن بوش كان الأب السماوى .

وألصق إخواننا الكوايتية صور بوش على زجاج عرباتهم
وظلوا على إيمانهم بأنه نبي الرحمة فى هذا العصر .

ووضعت الحرب أوزارها وسكتت المدافع وأقلعت البوارج
وعادت الجيوش وبدأت كاسحات الألغام تقوم بواجبها .

لم يبق من كابوس الحرب المشؤومة سوى أربعمائة بئر
مشتعلة تنفث الدخان فى سحابة تسقط المطر كالحا أسود .

ثم فوجئنا بعد شهرين بأمريكا وفرنسا تعلنان عن خطة
لضرب العراق من جديد . . لتتسبب عشرين موقعا تدعى
كلاهما أنها مواقع لأبحاث نووية لم يبلغ عنها وهى حرب
جديدة تثير أكثر من سؤال .

انها هذه المرة حرب على بلد مهزوم مدمر محطم لا ماء فيه
ولا كهرباء ولا مجارى ولا بنية أساسية . وعلى شعب يسف
التراب ، وعلى صدام جديد مختلف تماما عن صدام القديم . .
فهو هذه المرة عبء مطيع يطأطأء رأسه لأى اشارة من
أمريكا . . اخرج من زاخو . . يخرج من زاخو . . اجلس مع
الأكراد . . يجلس مع الأكراد . . افتح أبواب ما تبقى من

ترسانتك للتفتيش . . يفتحها فورا ويضرب سلاما
للمفتشين . . أبلغنا بمواقع ما تبقى من مواد نووية . . يبلغهم
فى التو والساعة .

ولا أظن أن عدوانا جديدا سيقع على الكويت .

فلا تبقى إلا مظنة أن يكون صدام يجهز فى المستقبل لإعداد
قنبلة ذرية . . ولكن هناك أيضا مظنة بل أكثر من مظنة . . هناك
يقين على الجانب الآخر فى اسرائيل أن عندهم بالفعل أكثر من
مائة قنبلة نووية . . وعدوان اسرائيل واقع كل يوم ، والهجرة
مستمرة بالآلاف وبعد سنوات تصل الى ملايين . . ولا نية فى
أن تنسحب اسرائيل ولو شبرا واحدا . . بل إن الظن هو مزيد
من العدوان ومزيد من الاحتلال . . ومزيد من الظلم .

فكيف لا يحرك كل هذا انسانية أمريكا وعطفها؟!!

وكيف لا ترى من الصورة إلا أن هناك بقايا قوة نسيت أن
تدكها فى هذا الخراب الذى اسمه العراق . . وبقايا رجل اسمه
صدام حسين .

هل انضحت الصورة؟!!

وهل علم من لا يعلم أن المسألة لا علاقة لها بأى انسانية
ولا بأى مناشئات تقرأ . . ولا بأى أخبار تذاق . . ولا بكويت
ولا بقطر ولا بشعوب دبی والشارقة وأم القوين ، وإنما كالعادة
هى تحركات من وراء الكواليس .



وألعاب السيرك يغطي بها اللاعبون ألعاباً أخرى . تمثيلية
وراءها تمثيلية ووراء الكل مصالح لناس أقوياء .

ولأن كلمة المصالح مستفزة ودمها ثقيل . . فيلزم أن توضع
فى لفافة حريرية من الإنسانيات والمبادئ . ويحتاج الأمر
أحيانا إلى تأليف مسلسل تتداعى فيه الحوادث فى نعومة فيبدو
كل شىء وكأنما يحدث بتلقائية ودون افتعال ودون أن تحركه
يد . . ويشب الحريق كالعادة بدون فعل فاعل . . وغالبا ما يكون
الفاعل الذى اشعل الحريق ، هو أول من يأتى بعربات
الاطفاء . . وأول من يتلقى التهانى على نجده وانسانيته وقلبه
الطيب .

ونحن كالعادة . . أول من يقرأ . . وآخر من يفهم . . لأننا
لا نرى إلا المسرح . . ولا نعلم شيئا عن مطبخ التأليف وما
جرى فيه قبل أن يقف الممثلون على الخشبة .

على هذا النمط كانت تجرى حوادث التاريخ دائما .

قرأنا أن الشيوعية قاتلت وقتلت وأعدمت وأحرقت من
أجل الكادحين المطحونين المقهورين . . فهل أصاب هؤلاء
المقهورون من خير الشيوعية شيئا . . أم أنها زادتهم قهرا على
قهر ، وفقرا على فقر .

والثورة الفرنسية نسمة نسمع أنها قامت من أجل الحرية
والعدالة . . فهل حققت العدالة أم قطعت رأسها على
الجيلوتين؟!



و حينما دخل موسوليني الى طرابلس غازيا لبس عمامة
الإسلام وقال إنه جاء لينصر دين محمد!! فهل نصر دين
محمد عليه الصلاة والسلام أم نصب له المشانق!؟

وقد سمعنا قصة التاريخ من أفواه مؤرخين كانوا فى خدمة
هؤلاء الأقوياء الكبار وفى خدمة مصالحهم وقد كتبوا لهؤلاء
السادة ما يروق لهم .

وما وصلنا كان أوراقا مزيفة لا تحكى الحقيقة . . وإنما تحكى
عن ذكاء هؤلاء الكبار وعظمتهم وطيبة قلبهم وانسانيتهم .

وفى هذا الكتاب محاولة مختلفة . . لجمع ما تفرق من
أوراق وحقائق وأكاذيب هذا اللغز العجيب الذى اسمه حرب
الخليج . . وما فى هذه الحرب من سراديب ودهاليز ومتاهات
يحار فيها اللبيب .

وما زالت نتائج تلك الحرب تتداعى .

وما زال مطبخ الحوادث يكشف لنا الجديد كل يوم .

ولا يعلم أحد أين ستلقى سفن التاريخ مراسيها .

ولا على أى صورة سيرث أولادنا وأحفادنا خريطة هذه

التركة التى اسمها الشرق الأوسط .

د . مصطفى محمود

أيام الخوف

قبل الحرب . . .

· أزمة الخليج وصلت إلى عنق
الزجاجة . .

حاجز الخوف والتهويل والمبالغة
والتحذير من حرب عالمية ثالثة تأكل

الأخضر واليابس . . هذا الحاجز الوهمي ظل يرتفع ويرتفع
حتى تحول إلى درع سميكة يستعملها صدام حسين لحمايته من
أى عدوان .

والسؤال الآن هو: من صنع هذا الوهم؟

ومن ظل يهول ويضخم في قوة العراق وفي كفاءة جيشها
وفي عظمة تسليحها وفي الردرات الفرنسية والصواريخ
الروسية والترسانة الكيميائية والمخازن الميكروبية والمفاعلات
النووية . . وحرب الألف عام . . وصراع الفناء والهلاك
والدمار؟!!

لقد بدأت الحكاية كبضاعة عراقية رخيصة روجتها الأبواق
العراقية . . ثم تلقفتها الصحافة الأمريكية وأضافت إليها
خيالات الرأي العام الأمريكي الراض للتحرب، وأبلغتها إلى
منابر صنع القرار . . فلم يتوان بوش عن النفخ فيها بدوره
ليعطى لنفسه مبررا للتكثيف العسكري وتهيئ العالم
بطائراته وعساكره وبوارجه وغواصاته ومدرعاته، وليشير

مجلس الأمن ليصدر القرارات ، ويهيئ الأمم المتحدة لتسارع
بالتحذيرات . . . وليقول العالم في زهو : ان انتصارات أمريكا
هذه المرة هي انتصار على هتلر آخر وقضاء على ما رآه آخر من
مردة التاريخ .

وسارع يهود البورصة وسماسرة الكوارث الى الاستفادة
من المناسبة فنفخوا في النار أكثر لترتفع أسعار البترول إلى
الذروة ، وليرتفع الذهب ، ولتتضاعف الأرباح وتمتلىء
الجيوب .

وتلقف المعسكر العربي الضالع مع صدام الإشاعة لينفخ
فيها أكثر وأكثر . . . ووقف الملك حسين يهدد العالم باشتعال
البترول وتساعد سحب الدخان واحتجاب الشمس والموت
بردا في عصر جليدي قادم ، أو الموت حرا بسبب اتساع ثقب
الأوزون . . . إلى آخر هذه السداجات التي اختلقها خياله .

وسكت المعسكر العربي الآخر الواقف مع أمريكا عن هذا
التسهيل ، والبعض خرج عن سكوته ليساهم في موجة
التخويف انقاء لحرب قد تتسع لتعصف به وبسلطانه .

وهكذا كبر ما رآه الخوف بما يتغذى عليه من أوهام من جميع
الأطراف . . . ليرتد فيقيد حركة جميع الأطراف ، وليصل بهم
الى حالة من الشلل وانعدام القرار .

وبدأت الأزمة تدور في حلقة مفرغة من التهديد وتكديس السلاح، ثم الخوف من استعماله، ثم تهديد آخر، وتكديس آخر لمزيد من السلاح، ثم الوقوف محلك سر . . لا حرب ولا سلام .

والذين أطلقوا الإشاعات صدقوها، ثم أصبحوا ضحاياها هم أنفسهم!

والرأى العام صدقهم وانطلق في مظاهرات ترفض الحرب وتقيّد أيدي صنّاع القرار أكثر فأكثر .
وبداية الحكاية كانت كذبة .

إن صدام حسين هتلر آخر . . وأن جيشه لا يقهر . . ومدده من السلاح لا ينفد . . وصواريخه سوف تصل إلى رؤساء الدول في غرف نومهم . . وأنه سوف يحرق بترول العالم . . وأنه سوف يقنن نصفه في حرب لا ترحم . . وأنه سوف يذيب جلود الأمريكان بالغازات ويشوى أبدانهم بالحرائق . . وكلها مزاعم ساذجة .

فلا صدام حسين . . هتلر . . ولا جيشه قوة لا تقهر . .

وقد دخل جيش صدام الحرب لثمانى سنوات مع جيش إيران المهلهل الضعيف فلم يستطع أن يحقق نصراً أو يحتل شبراً . . ولم يستطع أن يحرق بترول إيران ولا بعض آبارها . . ولم تحقّق له أسلحته الكيماوية تفوقاً . . ولم تحسم له معركة .

ولم يكتسح صدام حسين روسيا كما فعل هتلر، وإنما اقتحم جارة ضعيفة مسالمة بلا جيش هي الكويت يمكن اقتحامها ببضعة موتوسيكلات .

انها حكاية ثمر من ورق، وأسد من قطن، وجيش ضعيف يحركه الخوف من قواده . . وقواده يحركهم الخوف من المهيب الركن . . وهرم من الشعارات والهتافات لا يصمد لضربة واحدة .

وصدام لا يستمد قوته من نفسه ولا من جيشه وإنما من خوف الآخرين . . من خوف التجمع الرابض على الطرف الآخر . . وكلهم جاءوا من بلاد بعيدة لا تربطهم لغة ولا جنس ولا عقيدة . . هم خليط من الشرق والغرب، لا مصلحة لأحدهم في أن يبقى بعيدا عن أهله لحظة واحدة . . ومن ورائهم دول متقدمة تخاف هي الأخرى على رخائها واقتصادها ورجالها . . وزعماء يخافون على أصوات ناخبينهم ويخافون الصحافة ويخافون الرأي العام . .

وبوش من هذا الخوف بين نارين . . بين فقدان مصداقيته وناخبيه وسلطانه وكرسيه إذا زج ببلاده في حرب . . وبين فقدان الهيبة الأمريكية إذا انتهى كل هذا الضجيج إلى لاشيء وانفجر كبالونة هواء، وخرج صدام حسين منتصرا ومعه تنازلات عربية ومكاسب اقليمية بلا حرب وبلا ضرب .

وخروج صدام سليما معناه خروج العراق سليمة بترساتها
وأسلحتها وجيشها . . ومعناه بقاء التهديد وبقاء الخطر . .
وربما تراكمه مع الأيام لينفجر بقوة أكبر وعلى جبهة أوسع فى
مناسبة أخرى .

ولن يكون صدام أبدا قوة للعرب بل عليهم . .

وقد حارب صدام كل جيرانه العرب ، وتآمر على القريب
والبعيد ، ولم يحدث أن ألقى حجرا واحدا على اسرائيل حتى
بعد أن نسفت له مفاعله الذرى .

ولا أساس لأى ظن يفترض أن قوة صدام ستكون درعا
للعرب ضد اسرائيل .

وتاريخ صدام هو أقرب للعمالة منه لأى شىء آخر . . فهو
مرة عميل لروسيا ، ومرة عميل لأمريكا ، ومرة عميل لفرنسا ،
ومرة عميل نفسه . . لنزواته ولطموحاته . . وهو مغامر يريد أن
يشغل العالم بترديد اسمه مدحا أو ذما أو خوفا . . المهم أن
يظل فى الصفحات الأولى من كل الجرائد ، وأن يظل الخبر
الأول فى كل النشرات . . وفى سبيل ذلك لا يتورع أن يتخذ
العروبة مطية ، والإسلام وسيلة ، والاعتقال مركبا ، والمال
أداة .

وتلك صفات كل الطغاة والجبابرة . . فهم لا يرون طول
الوقت إلا أنفُسهم ، ولا يسمعون إلا صوتهم ولا يشهدون

فى الآخرىن إلا مرأىا.تعكس سلطانهم . . لا تردعهم إلا
هزىمة تقصم الظهر .

ىقول الله سبحانه وتعالى فى حدیثه القدسى :

«الكبرىاء ردائى والعظمة إزارى من نازعنى فىهما قصمته» .

ولا ندرى هل اقتربت النهایة القاصمة . . أم أن الله مازال

ىمد فى الحبل زیادة فى الامتحان . .

وكلنا فى امتحان . . صغارنا وكبارنا . .

وشكرا للخوف . . فإنه هو وحده الذى وضع أیدى الجميع

على الفرامل . .

حتى المهیب الركن . . الحدیدى الأعصاب . . كف ىده عن

العدوان . . خوفا . . وأحسبه أوفر الجميع نصیبا من الخوف ،

ورغم بروده ورغم شعارت التهذید التى یطلقها من وقت لآخر

إلا أنه یرتجف فى باطنه . . وهو یرى مصیر الذین سبقوه . .

موسولینى المعلق من رجليه . . وشاوتشیسكو الملقى إلى جوار

الحائط كخرقة مهلهلة مزقها الرصاص .

وكل الجبابة جبناء رعادید . . وسبب قسوتهم هو خوفهم

وجبنهم .

حتى المارد الأمريكى خائف هو الآخر من مصیر مثل مصیر

حرب فىتنام ، والعالم بكافة دوله ىخاف على البترول وىخشى

صوارىخ الأسعار وتقلبات الاقتصاد .

والأنظمة العربية الهشة تخشى من الهزيمة وتخشى من الانتصار . . وتخشى من طول الانتظار . . ومن تبدل الأقدار .

اسرائيل وحدها هي التي تخاف خوفا عكسيا . . فهي وحدها التي تخاف من الصلح وتخشى أن تفلت الفرصة الذهبية ويعبر العالم علي حاجز الشوك دون حرب ودون ضرب ودون خراب .

وصدام بلا شك يستثمر هذا الخوف العام استثمارا جيدا لصالحه . . وهو يحرص على أن يغذى هذا الخوف كلما بدأ يخبو وينفخ فيه بالتهديدات والاندادات .

ولأن أمريكا ذات وجهين . . وجه إلى العرب ووجه إلى اسرائيل ، فهي ليست ملاك الانقاذ الأمثل ، بل هي ذاتها أحد مصادر الخوف . . ولهذا يتلفت العرب مرة إلى روسيا ومرة إلى الصين فى بحثهم عن مزيد من الأمن . . ولا أمن هناك . . ولا ملجأ ولا مرساة يتشبثون بها .

هل يؤدي هذا الخوف العام إلى اختيار حلول وسطى للخروج من الأزمة . . ؟

أم أنه سيؤدي إلى شلل عام؟

أم أن هناك من سيضرب البحر بعصاه لينهى هذا الخوف بضربة واحدة وليكن ما يكون؟!

أم ستظل حالة الشلل الرعاش سائدة لعدة شهور . العلم
عند الله . .

وأرجو ألا يفقد أحد الأطراف صبره فيتعجل النتيجة
بحرب مفاجئة . . فالحرب سوف تقلب الموازين بدرجة يصعب
معها التنبؤ بأى شىء .

ولا أرى خيرا فى مساومة أو صلح مؤسس على
التنازلات . . فنحن امام مجرم له تاريخ فى المناورة، وله سجل
حافل بالمظالم والشور ولا يجوز اعفاؤه من العقاب . . وأى
صفقة مع مجرم هى جريمة . .

ولا أحسب أن الله سيعفيه من العقاب حتى لو أعفينا
نحن . . وإنما مصيره عند الله مثل مصير الظالمين الذين قال الله
عنهم فى قرآنه .

﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾

وإذا كان قد بدأ اللعبة بسباق فى البرود . . فلنكن أبرد . .
ولكننا نذكره بأن طول الحبل لا يطمئن . . لأنه هو نفس
الحبل الذى سوف يلتف حول عنقه فى النهاية لتكون القارعة .

الهدى

حرب الخليج التي نشبت كانت
طرازا عجيبا في تاريخ الحروب . . على
أحد الجانبين رأينا أكبر تجمع من ثمان
وعشرين دولة بعثاها وعسكرها
ويوارجها وحاملات طائراتها
وغواصاتها ودبابتها . . وكلهم يفعلون شيئا واحدا . .
يقصفون العراق من الجو والبر والبحر بأكثر سيل من القذائف
والمفجرات - ١٢٥ ألف طلعة هجومية - وجرائدهم تهتف في
كل طلعة : صدام . . صدام . . صدام . .
حفلة صيد والكل وراء صدام . .

إنهم يحرقون غابة ليصطادوا ثعلبا . . ثم يقولون في
النهاية : إنهم لا يريدون الثعلب . . بل يريدون شيئا آخر . .
يريدون تحرير الكويت . . لماذا إذن كل هذه الآلاف من الأطنان
من القنابل تلقى على العراق . . حتى تسلم لهم الكويت بدون
مقاومة . . ويدخلوها آمنين دون أن تراق قطرة دم واحدة .

من أجل توفير الدم الأمريكي يراق الدم العراقي شعبا
وجيشا بكافة أنواع الأسلحة . . أمور عادية في منطق
الحروب . . وهكذا كان منطق الحروب دائما . . لا غرابة . .

الغريب أن أمريكا تؤكد أن هجماتها انسانية . . وأنها خلال
١٢٥ ألف غارة لم تستهدف المدنيين . . ومع ذلك تقول

نشراتها العسكرية : إن الطائرات نسفت اثنين وستين كوبرى ومحطات مياه ومولدات كهرباء ومجمعات ومجارى ومراكز للتليفونات والبرق والبريد وخطوط للسكك الحديدية وطوابير عربات النقل وآلاف المخازن بمحتوياتها !! أى أن المواطن - إذا قدر له أن يعيش لن يجد الماء ولا الكهرباء ولا التليفون ولا أى شىء مخزون يقتات عليه . . ولا مواصلة ولا كوبرى ولا سوق يبيع فيه ويشترى . . وسوف يموت رعبا وجوعا . .

وفى آخر غارة ضربت الطائرات الأمريكية مخبأ للغارات يختبئ فيه ٢٨٠ من الأطفال والشيوخ والنساء وقتلتهم جميعا . . واعترفت أمريكا أن الأمر التبس عليها . . معلش !! هذا يحدث دائما فى أكثر الحروب الانسانية . . لا غرابة . .

وللحق والإنصاف نقول : إن استهانة الجيش الأمريكى بشعب العراق لا تختلف كثيرا عن استهانة صدام بشعبه وتقديمه لقمة رخيصة لقنابل الأمريكان ليفنى عن آخره فى مقابل أن يحتفظ بماء وجهه . . هذا إذا كان فى وجهه أى بقية من ماء . . والحق أن وجهه خلا من الماء ، كما أن وجه خصومه خلا من الدم ! .

وبين وحشية الغارات الأمريكية ، ووحشية القرار الصدامى ، راح الشعب العراقى المسكين ضحية .

ذلك هو اللامعقول الأول في هذا الجنون الذي يجرى على أرض الخليج .

أما اللامعقول الثاني . . فإنه لا يوجد كاسب واحد في هذه الحرب . . الأطراف العربية الداخلة فيها سوف تخسر مدخراتها واستثماراتها وأموالها وثروتها البترولية ورجالها وآبارها وسلاحها ثم مستقبلها . . فهي غدا إذا انتصرت سوف تتدخل اليد الأمريكية لتعيد تخطيط المنطقة على هواها وعلى هوى حلفائها الأوروبيين . . وقد سمعنا المظاهرات في أمريكا تهتف : اننا لا نحارب لنثبت الشيوخ على ملكهم . .

المستقبل إذن للنظم الديمقراطية الشعبية والانتخابات والاستفتاءات والحكومات المنتخبة . . ومجالس الشعب . . ومجالس الشورى . . الخ . . الخ . .

والاقتصاد البترولى لن يعود في يد الأوبك وإنما سيعود إلى القبضة الأمريكية لتحديد السعر الذي يناسبها ويناسب المجموعة الأوروبية . . ست عشرة دولارات للبرميل على الأكثر . .

ما المكسب إذن . . إنى لا أرى مكسبا واحدا من هذه الحرب للمجموعة العربية ، ولن يخفف من المأساة أن صدام المجرم سيكون مقبوضا عليه أو مقتولا أو معلقا من رجليه أو ملفوفا في كفن أحمر مكتوب عليه إبليس عدو البشر . . فالحقيقة أن

الساحات امتلأت من بعده بعشرات الأبالسة والشياطين ممن يفوقون عليه في المكر والخديعة . . فما حدث في هذه الحرب انها قد استدعت كل المنتفعين من شياطين الأرض فجاءوا من أرجاء المعمورة كل منهم يريد أن يحصل على لقمة من الكعكة . . وأصبحت وليمة للقتل . . فتهمة . . تتزاحم عليها السكاكين والشوك . . والضحية شعب بريء هو نفسه رهينة وسجين في يد صدام . .

حتى ميتران المنافق الذي نادى بانسحاب متزامن مع وعد بمؤتمر دولي . . ما لبث أن سحب اقتراحه حينما اشتعلت الحرب وأسرع بطائرات الميراج يدك العراق ليحصل على نصيبه من الفتنة . .

ودوجلاس هيرد وبيكر راحا يترددان في زيارات مكوكية على الشيخ جابر الصباح في سويسرا ليقع لهما على عقود لشركات أمريكية وإنجليزية سوف تبنى الكويت . . وتصلح الآبار . . وترمم الديار . . وتقيم المصافي وتعيد المصانع الى حالها مقابل ستين مليار دولار .

لقد هدموا وقبضوا ثمن الهدم فواتير عاجلة!!

وغدا يبنون ما هدموا ويقبضون مرة أخرى (ثمن البناء) بفواتير آجلة .

وإذا بلغت الكويت والعراق حدود الاستدانة ، فسوف

يفتح بيكر وهيرد خزائنهما في كرم حاتمى ليقترض الكويت والعراق بضمنان البترول ما يشاءان . . فالخطة هى إفقار الأغنياء وإضعاف الأقوياء حتى لا يعود هناك صوت قادر يخشى منه ويصبح الكل مدينا ومحتاجا .

أما اللامعقول الثالث فى هذه الحرب التعسة . . فهو أن الحروب تقوم عادة من أجل إحقاق الحق ومن أجل إشاعة السلام ومن أجل مستقبل أكثر أمنا . . ولكن هذه الحروب سوف تؤدى الى العكس . . سوف تخلف عداوات وفتنا وبغضاء وكراهية وتارات . . ولن يعود بعدها أحد صديقا لأحد . . وسيضرب العرب بعضهم رقاب بعض .

وسوف يسبح الإرهاب طليقا يطلب الانتقام وتصفية الحسابات .

واسرائيل تعلم ذلك ، وهى لهذا تشعل النار أكثر وأكثر كلما بدأت تخبو . . وتطمس على أى حل سلمى يظهر فى الأفق . . وتمارس ضبط النفس رغم الصواريخ التى تنزل عليها . . ولا تمد يدها لترد . . حتى لا يتحول التيار . . وينطفىء الضرام .

ومنطق اسرائيل ان يستمر هذا الغباء والحمق والانتحار الى نهايته . . وأن تحصد هى الثمرة فى النهاية . . فلا كاسب فى كل المجموعة سواها . .

وهى لا تخشى المؤتمر الدولى بعد الحرب ، لأنها تعلم انه لن يقدم ولن يؤخر ، وإذا أصدر قراراته لإسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة . . فإنها لن تنسحب ، وإذا أصدر قرارات بفك المصانع النووية والكيميائية والبيولوجية . . فإنها لن تفعل .

وهناك أكثر من عشرين قرارا سابقا للأمم المتحدة منذ ٢٣ سنة لم تنفذها اسرائيل .

أما اللامعقول الرابع فسيكون من نصيب العرب . . أن يعودوا مائة سنة إلى الوراء . . دولا تابعة . . تأخذ الخبرات والمعونات والقروض من الآخرين . دولا فقيرة متنافرة متباغضة ترتع فيها الفتن وصيحات الانتقام وتأكلها الأحقاد ويمرح فيها التخلف .

وبالنسبة لأمريكا سوف يعلو نجمها . . فالشرق الأوسط كله سيعود إليها بقواعده وخططه وأسلحته وأمنه وشعوبه . . عودة سعيدة من منطلق الكرم وحسن الضيافة مع دعوات بطول الإقامة .

نهاية عجيبة . . وكوميديا سوداء مما يكتبه كتاب اللامعقول أمثال صمويل بيكيت . . الصديق يقتل الصديق ويهتف للعدو . . والشهامة تتحرر . . والعقل يفلس . . والحكمة تبور!

ولا أظن أن هناك حلا أو مخرجا بعد أن تداعت الحوادث مسرعة إلى مصائرهما المحتمومة ، ولم يعد هناك مجال لفتوى أو نصيحة ، وإنما أقول ما أقول لكي نفهم ولكي نعرف العدو من الصديق ، ولكي لا نتخذنا الشعارات ، ولكي نرى ما نحن مقبلون عليه .

ولو أن القصة عادت من أولها . . ونادت السعودية تستنجد بمصر لاستجابات مصر ولما فعلت إلا ما فعلته . . وما كان لها أن تفعل إلا ما فعلت . . ولو أن السعودية والخليج استنجدت بأمريكا لأسرعت أمريكا إلى تلبية الطلب وجاءت مهرولة كما جاءت ، ولما كان لها أن تفعل إلا ما فعلت .

إن ما جرى يا إخوان كان فيه حكمة القدر ، وكان «البد الذي ليس منه بد» والحتم الذي ليس منه مهرب . . فهو ترتيب قدرى .

ولا شك أن الله له حكمة فى كل هذا ، لعل الله بهذه المأساة السوداء أراد أن يكشف جميع الأطراف ويفضح مخططاتهم .

لقد أوقع الجميع فى الابتلاء ليخرج المكتوم من نياتهم .
هكذا يفعل سبحانه بالناس قائلًا فى قرآنه العظيم . .

﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ .

أراد أن يخرج المكتوم وراء ابتسامات النفاق وقبيلات

الدبلوماسية وبروتوكولات المجاملة . . أراد أن يضع السيف على حد الرقبة ليقول كل واحد الحقيقة وينطق بالصدق .

واعتقادي أن القصة بدأت وأنا مازلنا في البداية . . وأن هناك فصولا متعددة قادمة، وأن الستار سيرتفع عن أشياء وأشياء . . فإنه لا شيء يجري في ملك الله عبثا . . وإن ظهر في مرحلة أنه اللامعقول بعينه . . فإنما هو فصل من رواية . . وفي الفصل الثاني ترتفع الستار لنعرف أكثر ولنرى أن ما شاهدناه لا معقول . . كان هو عين المعقول .

وقريبا يستسلم صدام أو يقتل مهزوما ويسدل الستار على الفصل الأول من هذه الجريمة الكبرى التي دخلت التاريخ تحت اسم «طلب نجدة» .

فماذا تظنون على أي شيء ستفتح الستار غدا ، وعلى أي مشهد؟!

ستفتح على مشهد ذهبي لإسرائيل تعلو فيه وترتفع وتزغرد وتبنى المستوطنات وتستقبل آلاف المهاجرين وتضاعف عدد قنابلها النووية وتضاعف عدد بوارجها وغواصاتها من منحة الـ ١٣ مليار دولار التي فازت بها من بوش ثمن السكوت وما خفي كان أعظم .

بينما سيتجمع العرب سراذم متنافرة متباغضة منقسمة على شبابيك تموين جمعيات الأمم المتحدة الخيرية ليقبضوا المعونات

والقروض وليتعاقدوا مع الشركات ومع البنائين المحظوظين
من أمريكا وإنجلترا وسويسرا وفرنسا . . من الذين كانوا
يمطرونهم بالقنابل بالأمس .

وهذه هي الدنيا !!

وما بقى من فصول المأساة لن تجدونه إلا في الكتب الدينية
القديمة .

فإن اسرائيل التي ستعلو وتعلو وتطغى وتفسد لن يستمر
علوها طويلا . . هكذا تقول الكتب . . فما تلبث أن ترتكب
الخطأ الذي يقضى عليها ، وحينذاك ينهدم بنيانها ويتحطم
هيكلها للمرة الأخيرة وبنفس الأيدي العربية التي ظلموها
وشتتوها وتأمروا عليها . . ويدخل المسلمون المسجد كما
دخلوه أول مرة .

متى يحدث هذا؟

أيحدث في حياتنا . .

ربما في حياة أولادنا أو أحفادنا أو أحفاد أحفادنا . . فدولة
الظلم لا تدوم .

وفوق مكر الماكرين . . هناك مكر الذي خلقهم . . والذي
لا يفلت من يديه ظالم .

﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾

الخروج منه أحوال الخليل

ما حدث في الخليج لم يكن منفصلا
عما حدث على شاطئ المتوسط
والأحمر، وعما جرى في الدول العربية
بشكل عام. . فمنذ الخمسينات هبت
على المنطقة العربية عاصفة من
الانقلابات والديكتاتوريات والنظم القاسية والحكم الفردي،
أعقبتها شبكة عنكبوتية من النظم الاشتراكية سقطت في
أحوالها شعوب ودول ونظم عربية .

وتحولت الأفكار الاشتراكية إلى أصنام مقدسة يحرق لها
البخور، وتطلق من أجلها الأناشيد، وتنظم المسيرات وتحترق
الصفحات الأولى في جميع الجرائد. . وبالتالي تغسل
العقول، وتخفق الحريات، وتكسر الأقلام، وتعلق المشانق،
وتملأ السجون باسم العدالة والحرية وحقوق الكادحين !!
وساهم المسرح والسينما والتلفزيون وكتيبة ممن سمو أنفسهم
باليصار التقدمي في عملية التعمية الشاملة وترسيخ الاستبداد
وتبرير الظلم .

ولم يكن صدام حسين هو الوحيد في هذه السلالة التي
انفردت بالناس، وإن كان أشدها قسوة وأكثرها تطرفا
وجلافة .

وكانت دول الخليج والنظم الملكية من المغرب غربا إلى اليمن جنوبا إلى السعودية شرقا عدوا مستهدفا لهذه النظم .

وقد بدأ الشرخ فى الجبهة العربية منذ هذا التاريخ . . وبدأ الفكر التأمري من ذلك اليوم البعيد . .

وكان الحلم الإجرامى الذى كان يراود كل هذه الديكتاتوريات هو قلب نظم الحكم تحت لافتة انسانية جذابة هى إعادة توزيع الثروات وإنصاف الفقراء من ظلم الأغنياء ، وخلق جمهوريات على نمط الجمهوريات السوفيتية تؤم فيها كل الأنشطة الاقتصادية ويتحول كل المواطنين الى موظفين داخلين فى ذمة الدولة التى تستولى على كل شىء وتنفرد بكل شىء وتتولى كل شىء فى حياة المواطن ، من ميلاده إلى موته فى مقابل أن يتنازل لها عن روحه وعقله تشكلهما كما تشاء على وفاق المنهج الماركسى . . وعلى هدى نظم بوليسية لا يفتح أحد فيها فمه . .

وكان بدء سقوط هذه النظم من داخلها . . بانقلابات داخلية . . وهزائم . . وانهيارات اقتصادية . . ثم بدأت تأتينا أخبار الزلزال من الخارج .

ثم جاء الطوفان . . وسقط سور برلين .

ووقف نوح القرن العشرين (جورباتشوف) ليفضح الكذبة الكبرى التى روجها السوفييت وفرضوها على أوروبا الشرقية

بالمدافع والصواريخ والبوليس والمخابرات ليعترف بالانهيار
الاقتصادي والتخلف والإفلاس والمجاعة التي تهدد الاتحاد
السوفيتى بسبب المنهج الاشتراكى الفاسد .

ورأينا أول مرة وبعد ستين سنة من الثورة البلشفية عمال
المناجم السوفييت مهلهلين فقراء يعيشون كل ستة فى غرفة
واحدة بلا ماء وبلا كهرباء ولا يجد الواحد منهم صابونة
يغتسل بها .

ووجد جورباتشوف الجراة ليقف فى وجه ستين عاما من
الكذب والفساد ليقول الحقيقة وليقرر التخلّى عن المنهج
الاشتراكى والعودة الى اقتصاد السوق وإلى الانفتاح على
الغرب وإلى التعددية الحزبية .

ورأينا روسيا تطلب الخبز والقمح من أمريكا، ومعونات
الشتاء من أوروبا، والخبرة التكنولوجية من ألمانيا الغربية
واليابان .

ووقفت الاشتراكيات التابعة فى البلاد العربية مشدوهة وقد
تعرت بدورها لأول مرة بعد سقوط الكعبة الأم فى
الكرملين . . ولم تجد ما تقوله .

وفقد كتاب اليسار ذاكرتهم، وترنحت أقلامهم على الورق
تكتب أى كلام وكف أكثرهم عن الكتابة . . وغرق بعضهم فى
المراجع والمتون يطلب نجدة . . والذين فقدوا حياءهم لم يجدوا

مانعا من أن يقولوا أى شىء .

ولم يجد صدام مانعا بعد سقوطه راية الاشتراكية من يده
من أن يرفع راية الاسلام . . فقد كان فاقدا للمبدأ والحياء من
البداية . .

ثم رأينا ما كان يضمه طول الوقت . .

لم يكن اشتراكية ولا اسلامية . . ولا وحدة عربية . . ولكن
التوسع والغزو والاعتصاب والنهب . . كان كل ما يريده . .

وحدث ما حدث من الشريط المؤلم الذى رأيناه ،
والكابوس السياسى الذى عشناه بدءا بغزو الكويت . . والذى
انقسم العرب فيه ليحاربوا بعضهم بعضا .

ولم يكن هناك مفر من إخراج صدام عنوة من الكويت
بمساعدة القوات الأمريكية وضرب الصناعات العسكرية
العراقية والبنية الأساسية لبغداد والبصرة من الجو لتعجيزه عن
الرد .

وعلى البر الآخر أحرقت القوات العراقية المنسحبة ستمائة
من آبار الكويت لإفقار الكويت لعدة سنوات .

ومازال صدام قابعا فى مخبئه فى بغداد محاصرا بثورة
مضادة فى الشمال وثورة مضادة فى الجنوب ومؤيدا ببقية من
حرسه الجمهورى !!

ولا يوجد أمامه إلا مشروع موت بطيء . . . أو هرب . . . أو
انتحار . . . أو قتل يختصر نهايته .

أما ما تبقى من الخريطة العربية . . . فهي خريطة أشلاء تحاول
ان تجتمع . . . وجراح تحاول أن تلتئم . . .

ولكن الخروج من أحوال الموقف يجب أن يبدأ من
البداية . . . من بداية الكارثة . . . من نظم الحكم الفردى ومن
الهيكل الاشتراكية الفاسدة . . . التى كانت السبب الأول
للشرخ السياسى فى المنطقة ، والتى قسمت المنطقة إلى يمين
ويسار ورجعية وتقدمية إلى آخر هذا القاموس من الأكاذيب
المفتعلة . . .

وهذه الأكاذيب المفتعلة هى التى أنجبت بدورها الكذبة
الكبرى المعسولة . . . إعادة توزيع الثروة وإحياء الوحدة العربية
بالغزو ، وشرعية السطو والسرقة والمصادرة لصالح المطحونين
والمسحوقين والكادحين . . . إلى آخر الموال القديم .

ولن يكون هناك خروج من هذا الوحل إلا بالخروج من هذا
الموال المبتذل وما يتبعه من نظم حكم فردية وعصابات تحكمية
وقوانين بوليسية . . . وأكاذيب أيديولوجية .

وفى مصر حددنا ألف يوم للخروج من هذه الأحوال
الاشتراكية .

ألف يوم لنخرج من الدعم والخمسين فى المائة عمال

وفلاحين والمجانية والعشوائية وبيروقراطية التصدير والاستيراد والقوانين التي تغلق على الاستثمار والانفتاح بالضربة والفتاح وتعوق انطلاق الطاقات الفردية فى أن تتحرر وتبدع وتنطلق وتكسب وتشغل الأيدى العاطلة . .

فهل نسير بالسرعة المطلوبة . . وهل نتحرك . . أم أننا نتكلم ونجتمع وننفض فى لجان؟

ولماذا ننتظر ألف يوم حتى نصدر الكتاب المصرى والمنتجات المصرية الى الخارج فى حرية دون أن نقبض على المصدر لأنه لم يتلق أمواله فى موعدها بتهمة التهريب . . وكيف يكون انتشار الكتاب المصرى فى الأسواق العربية تهريبا . . وكيف يكون عبور المواهب المصرية الى الأقطار العربية على جناح الكتاب تهريبا . . لماذا لا يعدل هذا القانون فورا دون انتظار؟!

هذه أمور لا تحتاج لألف يوم . . لأنها بدايات . . وانقاذ التعليم من التكدر والزحام واللاجدى . . بداية أخرى عاجلة .

ان طلاب اليوم فى هذه الفصول المجانية المكدسة والتي لا تتلقى بالفعل أى تربية أو تعليم هم وزراء الغد . . فأى وزراء سيكونون وهم بهذه الصفة من الجهل والبطالة والضحالة العلمية .

وبماذا يفتى خمسون فى المائة من الفلاحين والعمال فى

مشاكل الكمبيوتر والهندسة الوراثية ومشاكل الأوزون والبيئة
ويدائل الطاقة . وما هو محصولهم العلمي ليشاركوا فى هذه
القضايا التى هى قضايا العصر والساعة . .

هل هم مجرد متفرجين . . أم مجرد مصنفين؟!
وماهى إضافتهم الحقيقية . . فى وقت مطلوب من كل فرد
فيه أن يكون إضافة حقيقية لا مجرد صورة وبطاقة عضوية؟!

وما يقال فى مصر لابد أن يقال مثله فى ليبيا وسوريا واليمن
والسودان إذا أريد بالفعل الخروج من أحوال الموقف الحالى . .
وإذا أريد الحصول على صحبة فعالة وأيد حرة تشارك فى
تغيير وتحديد المسير والمصير . .

إن التحدى اليوم هو اسرائيل .

وهو تحدى لا يواجه بالهتافات والشعارات والمزايدات . .
وإنما بالعلم والاقتصاد والصناعة المتطورة والسلاح المكافئ
واتحاد الكلمة ووضوح الموقف .

وعلى مصر أن تأخذ حجمها فى هذه الجبهة المتحدة ، وأن
يسمع صوتها ويعرف ثقلها . . ولابد أن تنتهى الحساسيات
والتحيزات والتحفظات إذا أريد لهذا الجمع الفعال أن ينشأ .

وهناك وقت مطلوب لإصلاح البيت من الداخل فى كل دولة ، وإصلاح مداخلنا الى البيوت الأخرى ، وإلى إصلاح حوارنا ولغاتنا وتغيير مواقفنا التقليدية ومخاوفنا العائلية .

وإذا كان إصلاح البيت الداخلى سيحتاج إلى ألف يوم . . فكم ألف شهر آخر سيحتاج بناء الهيكل العربى الكبير وإصلاحه وترميمه؟! .

إن إيقاع التاريخ فى زماننا أسرع من أن ينتظر آلاف الشهور وآلاف الأيام .

إن الدنيا تجرى . . تهرول . . تلهث .

والعلم يتطور وذاكرات الكمبيوتر يخزن فيها كل يوم من المعلومات والإحصاءات أضعاف ما عرف التاريخ فى ألف سنة مضت . .

وفى كل يوم تخرج نظرية ويولد اختراع . . فمتى نتابع ونتعلم ونهضم ونجد الفرصة لنخترع بدورنا وندخل فى مجال المنافسة؟! . . ونحن إلى الآن مكبلون باللجان التى تجتمع وتنفض ، وبالقوانين العتيقة التى انتهى عمرها الافتراضى . . والتى مازالت تحكمنا من مقابر الغفير .

مطلوب شجاعة تواجه هذا كله .

ومطلوب حزم وبت .

وجامعتنا التي تحولت إلى مدارس ثانوية من الدرجة الثانية
تعج بالضجيج والزحام وتمضغ محاضرات وملخصات انتهت
موضوعاتها . . والمعامل خلت من الأجهزة . . وطالب الطب لا
يجد فرصة ليفحص مريضاً أو يمارس التشريح بيده أو يجد
موطئ قدم ليشاهد جراحة . . وطالب العلوم لا يجد
مختبرات على مستوى العصر . . وطالب الفلك الذي يذهب
إلى مرصد القطامية يفاجأ بالمرصد متوقفاً منذ شهر بسبب
المرأة التي في حاجة إلى طلاء أو إصلاح أو استبدال . . لا
أحد يدري . .

وهو يعرف من كتبه ومقرراته أن علوم الرصد الفلكي
سبقت الآن مرصد القطامية بكثير . .

مطلوب شجاعة تواجه هذا كله ، ومطلوب أموال توضع
فوراً في مكانها لإصلاح هذا كله .

ليس عيباً أن نكون فقراء . . ولكنها جريمة أن نكون
متخلفين .

والعقل لا يعرف مستحيلاً . . وهو يستطيع أن يبدأ من
الصفري . .

واليابان بدأت من الصفري .

وألمانيا الغربية بدأت من تحت الصفري .

وكوريا الجنوبية بدأت من تحت الصفر .

ولكن المناخ الحر والديمقراطية ، والفرص المتاحة والهيكل السياسي المرن . . فتح الباب على مصراعيه للعمل والتنافس والخلق والإبداع ، فارتفع البناء فى سنوات قليلة وحدثت المعجزة . .

واليوم . . نسمع عن المارك الألماني والين الياباني . .

والصناعات الألمانية واليابانية تقتحم على أمريكا أسواقها . .

لسنا فى حاجة لألف يوم لكسر قيودنا .

ونقول للخائفين من ردود الفعل : ان الماضى المتراكم بأخطائه سيفجر الموقف بما يشتمل عليه من بؤس وبطالة وعجز بأخطر مما يفعل أى تغيير . . لأن التغيير سوف يعد بالأحسن . . أما البقاء على ما نحن فيه فإنه لا يعد بشيء وأعود فأكرر :

إن الخروج من أوحال الخليج يبدأ من هنا . . ونفس الكلام ينطبق على كل بلد عربى . . على سوريا وليبيا والسودان واليمن والعراق والجزائر والمغرب وباقى الأخوة . . فلغة التقدم أصبحت كلها لغة واحدة . . ومفرداتها هى فى كل مكان . .

والرد على التحدى الاسرائيلى . . يبدأ من نفس المنطلق .
وعلى الإسلاميين أن يتحاوروا بنفس اللغة . . وأن يتقنوا
نفس المفردات . . فالإسلام يضع العلم على رأس أولوياته ،
والشورى على رأس سياساته ، وهو ليس غريباً عن هذا
القاموس الجديد من الديمقراطية والحوار .
أما أعداء الإسلام الذين لا يرون من الإسلام إلا اللحية
والجلباب والقبقاب والتعصب والجمود على السلف فهم
خارج الموضوع . . وهم أيضاً خارج التاريخ . .
وقد جاء الوقت ليتحرك الأزهر من موقف المحافظة
والتقليد الى ساحة الاجتهاد والابداع . . فالإسلام نفسه دين
متفجر لا يتوقف عطاؤه ، وآيات القرآن تسبق العصر دائماً بما
تحوى من معان متجددة . . والتفسير القرآنى لا يتوقف عند ابن
عباس وابن كثير والطبرى والزمخشرى . . بل هو مستمر فى
العطاء إلى أن تقوم الساعة . .
الحركة . . الحركة يا أخوة . . فقد طال الركود والجمود
والسكون حتى كاد يسلمنا إلى الشلل .
الحركة فى كل شىء وفى كل ميدان . . وفى كل مجال . .
فالحياة ذاتها حركة والفكر حركة .
ولا سكون إلا للموتى .

المستقبل اطلبه بالغيوم

أخيرا سقط صدام حسين ونظامه

الفاجر . .

وعدد القتلى من جنود صدام فى

التقديرات الأولية مائة وخمسون ألفا . .

ومثلهم من الأسرى، ومن المدنيين

أضعاف ذلك، ومن الدبابات أكثر من أربعة آلاف دبابة

معطوبة ومن الطائرات المئات . . والبنية الأساسية فى العراق

على الأرض . . لا ماء ولا كهرباء لا اتصالات ولا سكك

حديدية ولا صرف صحى .

ولا شك أن أمريكا وإنجلترا وفرنسا سعداء بهذه الفرصة

النادرة التى منحتها لهم حرب الخليج . . فقد جربوا أسلحتهم

الجديدة، وكان الألوف من القتلى والدمار الفورى الذى ظهر

على شاشات التليفزيون إعلانا مجانيا طيبا لشركات السلاح

الأمريكية . . فارتفعت أسهم الباتريوت ونزلت أسعار الذهب

وارتفع الدولار . . وتواضع سعر برميل النفط من ثلاثين

دولارا إلى سبعة عشر دولارا رغم إحراق الآبار الكويتية

وتوقف العراق عن بيع مخزونها النفطى .

ومعنى ذلك أن النفط فى طريقه إلى النزول أكثر فأكثر . .

وأفواج العمال والمهندسين والخبراء فى طريقهم من أمريكا

وانجلترا إلى السعودية والكويت لإعادة تشييد ماتم تدميره . .
ومصانع السلاح تعمل بكل طاقاتها لاستعواض السلاح الذي
تم تخطيطه . . كله مكسب . .

لقد كانت حرب الخليج جرعة منشطة للاقتصاد الأوروبي
والأمريكي ، وعلاجاً فورياً للبطالة ومصدراً جديداً للدخل .
ولم يكن رضا أمريكا ولا غضبها في أى يوم من الأيام
علامة على عدالة حاكم أو فساد .

وتتوارد على خاطري أسماء طغاة سفاحين سقطوا : شاه
إيران . . ماركوس . . نورييجا . دوفاليه . . اورتيجا . . وأخيراً
صدام . .

ولم يكن السبب المشترك لسقوطهم هو طغيانهم . . ولكن
خبر آخر نساها دائماً هو موقف أمريكا من هذا الطغيان . .
فبعض هؤلاء صنعتهم أمريكا وسانده ودفعت به إلى مقعد
الرياسة وأيدته وسلحته مادام يوظف طغيانه لحسابها ، فإذا بدأ
يخرج عن الدور المرسوم ويعمل لحسابه تغيرت المانشات
وتغيرت الصفحات الأولى في الجرائد وظهرت لغة أخرى في
الإعلام الأمريكي وفي السياسة الخارجية الأمريكية تقول : إنه
مجرم وأفاق وطاغية يجب بتره واستتصاله .

ولم تكن أمريكا القاضى العادل النزيه كل مرة . . فقد
وضعت أمريكا يدها في يد السفاح ستالين ، ووضعت يدها في

يد الطاغية الدموى تشاوتشسكو وكانت تعطيه ملايين الدولارات مرتبا شهريا كعميل مخلص . . كما تعاملت مع فرانكو وسالازار وسوموزا ومونجستو هايلاماريام ديكتاتور أثيوبيا .

وحتى هذه اللحظة هناك أكثر من طاغية يتلقى الدعم والتأييد والسلاح من أمريكا وهو فى أمان مادام هو رجلها . . ومازالت اسرائيل إلى هذه اللحظة تدك بيوت الفلسطينيين بالطائرات وتتلقى مليارات الدولارات والتأييد والفيتو من أمريكا . . وما كانت حرب الخليج بحرب مبادئ بل حرب مصالح .

إن أمريكا - التى انفردت الآن بالكون - ليست الإمام العادل عمر بن الخطاب ، ولا يصح أن نتعامل معها من منطلق التسليم وتقديم فروض الولاء والطاعة والعبادة . . وإنما من منطلق المساءلة والمحاسبة .

لقد انتهت حرب الخليج . . ولكل حرب غنائم . . إلا هذه الحرب فكلها خسائر على جميع الأطراف العربية . . خسائر فى المال وفى الرجال وفى الثروة البترولية، وفى العمار الذى تحول إلى دمار، وفى الشمل الذى تفرق، وفى الوحدة التى

تبعثرت ، وفى المستقبل الذى تحول إلى تربص وتارات
وعداوات . . وفى المصير وفى السمعة .
لا مكسب واحد . .

الذين لعبوا اللعبة بذكاء و«حرفنة» هم الانجليز
والأمريكان . . أخذوا أموال العرب وأفقروا أغنياءهم
وأضعفوا أقوياءهم ودخلوا أوصياء فى الخلاف الذى
صنعه . . وفى النهاية صدام مازال موجودا . . والخريطة
«العربية باقية» على ماهى عليه . . مع فارق واحد بسيط . . أنه
أصبح فى كل دولة خازوق اسمه الخوف من الجار المتربص .
وفى غمرة الخوف العربى - العربى سوف يتوارى الخوف
العربى الاسرائيلى .

والعرب الأيتام فى مأدبة اللثام . . أصبحوا جميعا ضعفاء
وفى حاجة إلى أب روحى يحميهم من بعضهم البعض . .
والأب الروحى جاهز ومدود اليدين . . وهو العم سام الطيب
الودود الذى يوزع القمح على الجميع بالقروض والمعونات ،
ويوزع الأسلحة التقليدية التى لا يصل مرماها إلا إلى الجار
العربى (ولا تطول اسرائيل أبدا) . . ويفتح لهم حضنه الحنون
ويضمهم كالأفراخ الضالة فى حظيرة ربيبه الصهيونى حتى
تتربى الأفراخ على كراهية كل ما هو عربى ، وعلى معايشة

اسرائيل الكبرى والحب والولاء لأمريكا القائمة على العدالة
فى الأرض ورمز الديمقراطية والحرية ، وحارس الأمن على
اتساع الكرة الأرضية كلها .

وغدا تكون الصراعات القادمة هى صراع حضارات فى
مواجهة حضارات . . واقتصاد فى مواجهة اقتصاد . . وعلم
فى مواجهة علم . . وتكنولوجيا فى مواجهة تكنولوجيا . .
ومخابرات فى مواجهة مخابرات . . وإعلام فى مواجهة
إعلام . . وفن دعائى فى مواجهة فن دعائى .

وسوف تتوارى الأخلاق كعنصر له وزن ، وسوف تتوارى
القيم . . ولن يبقى منها إلا اسمها كماركة للدعاية والترويج
للأفكار الزائفة . . ولن تبقى . . إلا غابة من المصالح
المفترة . .

وسوف يختفى الدين فى ظاهر اللعبة ويتوارى فى المساجد
رغم أنه سيظل القبلة الزمنية الموقوتة الكامنة فى باطن الصراع
كله . . فكل الحملات محشودة ضده ، وكل القوى الإعلامية
موجهة إلى رموزه . .

ان الصهيونية (وهى المدفعية الضاربة) منتشرة كالأخطبوط
فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن والكونجرس ومجلس العموم

ومجلس اللوردات وادارات المخابرات وشركات صناعة الأسلحة والطائرة والصواريخ والمفاعلات النووية . . وهى فى مؤسسات النشر الصحافة والكتاب والتليفزيون والسينما والمسرح . .

وهى القابضة على أعصاب البورصات والبنوك والأسهم والسندات وأسواق البترول والذهب والماس والبرونز والنيكل والحديد والألومنيوم وكل ما يباع ويشترى ويصنع منه شىء .
والصهيونية ممتدة بأذرعها الأخطبوطية حتى فى الفاتيكان وفى الهيئة البابوية . .

ألم تستطيع أن تمحو عبارات اتهام اليهود بصلب المسيح من الانجيل المتداول بموافقة البابا وبركته . . ووضعت التهمة على رأس الرومان والغوغاء . . وطبع الانجيل الجديد فى تل أبيب معدلا .

الصهيونية إذن هى التى ستكون القوة الفاعلة الوحيدة فى العصر القادم من وراء العباءة الأمريكية ومن وراء تمثال الحرية العتيد .

وسيكون هدفها تعقب الإسلام ورموزه، وضرب معاقله وتشويه اسمه والقضاء على ما تبقى من منابر العروبة المنهارة، والدفع بالحملة الصهيونية تحت شعارات بريئة . . مثل ضرب

الرجعية ومحاربة التخلف وتحرير المرأة والقضاء على التطرف، وحرية الفن، وحرية الجنس ومحاربة الكبت والتسامح الدينى، وإقامة المعسكرات الشبابية لتكون مرتعا للانحلال المشروع تحت حراسة مؤسسات الدولة . . وترويج أفلام الجنس والعري والعنف ونشر المخدرات .

والقضاء على الشباب هو وسيلتهم للقضاء على المثالية والقضاء على الروح . . والقضاء على الأمل فى التغيير . . والقضاء على المستقبل . .

وتلك كلها جبهة واحدة من جبهات الحملة الصهيونية .

وهناك جبهات أخرى تجرى فى خفاء أكثر . . لتدمير الاقتصاد ولخلق الأزمات والإثراء من انهيارات البورصة .

وجبهة ثالثة أكثر خفاء هى سرقة الأسرار العسكرية لصناعة السلاح المتقدم وتكديسه وإنشاء مدن تحت الأرض، وطرق ومخازن ومطارات تأهباً لليوم الموعود والأمل المنشود . . يوم يغنى آل صهيون . . من النيل إلى الفرات يا إسرائيل . . ويوم ينتقمون لهزيمة خيبر .

هكذا يخططون . . وهكذا يحلمون . . كما يقول تلمودهم وكما يقول كتابهم بروتوكولات آل صهيون وكما تقول توراتهم . . وكما تقول أفعالهم ومؤامراتهم .

وهم يرون الآن أنهم قطعوا نصف الطريق إلى الكعبة . .
فقد قضاوا على العروبة بأيدي العرب . . وأصبحت الساحة
بطول وعرض الشرق الأوسط خالية لفرسانهم . . فالأرض
مليئة بالجرحي والضحايا . . وجميع الأطراف يلعن بعضها
بعضا . . والفقر والخراب والأنقاض والدبابات المحترقة تسد
الطريق أمام خمسين عاما آتية من التخلف .

ولن يتركوا جراحنا تلتئم بل سيلغوا فيها وينفشوا فيها
بسمومهم فيجعلوا الأخ يتوجس من أخيه ، والابن يشك في
أبيه ، حتى يصبح الكل في عين الكل متهما .
سيكون همهم توسيع الجرح وتكريس الذل .

وسوف يحسبون حسابا لكل شيء إلا رحمة الله . . فهي
شيء لا وجود لها عندهم . . وإذا وجدت فهي لهم
وحدهم . . فالرب هو ربهم وحدهم . . رب إسرائيل وداود ،
وبقية البشر أميون مسخرون لا يعبأ الرب بهم ولا يهتم في أي
واد هلكوا .

ولكن رحمة الله قادمة . . ونحن أهلها . . فما أرسل الله
نبينا إلا رحمة للعالمين . . . وذلك وعد غير مكذوب .
وما هذا البلاء إلا مقدمة لتلك الرحمة . . فهو نار المطهر
التي قضى الله أن ندخلها جميعا . . فقرأنا يقول :

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾
[الإسراء]

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾ [الشرح]

أى لا يأتى عسر إلا ويحف به يسر ان ورحمتان . . فابشروا
واعملوا . . فلا ييأس من رحمة الله إلا القوم الضالون .

اعملوا واكدحوا الى الله بطلب العلم وليس بتربية اللحي
وتقصير الجلايب ولبس القباقيب والتمسك بالمظهريات
والثانويات . . فإن أول آية نزلت فى كتابكم . . هى :

اقرأ . . .

أمر مباشر من الله بالقراءة وطلب العلم والبحث والتفكر
والتأمل .

وقد أمر الله بالعلم والعمل فى أكثر من ألف وخمسمائة
موضع فى القرآن الكريم . . فكيف نكون أمة الجهل والكسل
وهذا كتابنا؟!!

وكيف نرجو رحمة الله ولا نطيعه؟!!

وكيف نعلق المصاحف فى رقابنا ولا نعمل بها؟!!

وكيف نتمتم ونحوقل على المسابيح بما لانفهم وبما لا نعقل
وبما لا نعمل . . وكيف نجعل من شهر صيامنا شهر أكل وسهر
وسمر ولهو . .

العلم أولا والعلم ثانيا والعلم ثالثا . . والعمل بما تعلمناه
رابعا . . والهمة دائما . . ومكارم الأخلاق والصدق مع
النفس والصدق مع الله أخيرا . . هذا ديننا .

لنبدا عهدا جديدا إذا أردنا أن يكون لله معنا عهد جديد .
ولنغير من نفوسنا حتى يغير الله من أحوالنا . . فقد غربت
الشمس واشتمل علينا ليل حالك مدلهم لا يلمع فيه نجم .
فلنعمل ولا نألوا جهدا حتى لا يطول علينا انتظار الفجر .

والحزاني منا على اندحار صدام ظنا منهم أن صدام كان
مسلمنا مثلنا . . أقول لهم في يقين : بل كان عدوا فاجرا لا ذمة
له ولا عهد ولا كلمة ولا إسلام . . وكان عميلا للفئة
الباغية . . ولم يكن يعبد سوى نفسه . . ولقد ذهب إلى حيث
يذهب أمثاله . .

والذين صدقوه خدعتهم نفوسهم الطيبة وسذاجتهم .
وهكذا نحن في مصر عيبننا الطيبة والسذاجة . . وأنا
نصدق على التو . . كل من يقول يا رب . .

ونظن أنه مثلنا مؤمن سليم القلب لأننا ننظر إليه بمرآة
قلوبنا . . وليس بعقولنا الناقدة الفاحصة . .
ولعلنا نتعلم من الدرس ونكف عن هذه البلاهة . .
ونستعمل ذكاءنا . . ولو قليلا .

روسيا.. تَبْرَأُ مِنْكَ اسْمَ لِيْنِيْهِ

في الخمسينات من هذا القرن هبت
رياح الاشتراكية على معظم دول العالم
الثالث لتحمل إليها الخراب والدمار
والفساد السياسى ولتتركها بعد ذلك
أنقاضا . . . وحمل لواء تلك التحولات
التي كانت أشبه بمرض انهيار المناعة أو الإيدز السياسى أسماء
نذكرها جيدا أمثال : عبدالناصر والأسد وصدام ونميرى
وحسين إرشاد وسياد برى ومانجستو وأنور خوجة وتيتو
وأورتيجا وكاسترو . . .

وكلهم نقلوا هذه العدوى إلى بلادهم على طريقة زرع
الأعضاء . . .

وكالعادة انتهت عملية الزرع الخطأ إلى رفض الفكر
المزروع، وإلى انهيار البنية الاجتماعية والسياسية لتلك
البلدان، وحدث نفس الشيء فى كل بلد دخلته الاشتراكية .

وزحف الموت حتى وصل إلى روسيا الأم التي ظلت تتأكل
من الداخل حتى أشرفت على الهلاك، وأدركت حكامها
صحوة ضمير، فوقف جورباتشوف ليقول : إن روسيا
اختارت الطريق الخطأ وان الاقتصاد الاشتراكى أصاب بلاده
بالدمار . . . عند ذلك فقط فتحنا عيوننا على الحقيقة .

وكانت صدمة اهتز لها العالم وسقط من بعدها الأتباع
وانفرتوا كحبات المسبحة!!

كان آخرهم مانجستو المطرود في زيمبابوى . . وموبوتو
المطرود من زائير إلى المنفى في جنوب فرنسا ، في إحدى
ضياعه هناك بعد أن ضيع وسلب ونهب شعبه الجائع الفقير
ومازال الانفجار المتسلسل مستمرا ، ومازالت بقايا السلالة
الاشتراكية تتساقط واحدة بعد أخرى .

وآخر خبر سمعناه كان من أهالي مدينة ليننجراد الذين
طلبت أغلبيتهم بتبرئة مدينتهم من اسم لينين والعودة إلى
اسمها القديم . . سان بطرسبورج .

وآخر مشهد رأيناه على التلفزيون كان لفلاح أثيوبي ينهال
على تمثال لينين ضربا بالحذاء!

ولكن الشيوعية التي دخلت روسيا بالسلاح وسفك
الدماء ، والتي قامت على الإرهاب والسجون والمعتقلات ،
والتي ضربت بجذورها في البنية الاجتماعية لا يمكن
إقتلاعها إلا بالدم والكفاح والعذاب مرة أخرى .

والخمس عشرة جمهورية سوفيتية والتي تؤلف الاتحاد
السوفيتي والتي تتفكك الآن بعد أن ذابت المادة اللاصقة التي

تربطها . . (ولم تكن تلك المادة اللاصقة لإقبضة الديكتاتورية الحديدية) . . الآن وقد خفت تلك القبضة الحديدية . . وضعف النظام العسكرى فى موسكو . . بدأت تظهر قيادات فى كل جمهورية تطلب الاستقلال والانفصال . . ومع ارتفاع الأسعار والبطالة واختفاء السلع . . بدأت كل جمهورية تحاول أن تستقل بخيراتها وتنفصل باقتصادها وتقطع التزاماتها نحو الحكومة المركزية . .

جمهريات البلطيق الثلاثة : لاتفيا ولتوانيا واستونيا . . وجمهريات جورجيا وأوكرانيا وأرمينيا وأذربيجان وكازاخستان حتى بيلوروسيا التى اشتهرت بهدوئها اكتسحتها الإضرابات .

أكثر من ثلاثمائة ألف من عمال المناجم فى أوكرانيا أضربوا . . وكذلك عمال السكك الحديدية فى جورجيا . . وعمال المصانع فى جبال الأورال . . وأغلب وسائل النقل البرى توقفت . . ومؤسسات الدولة مشلولة . . ودعائم النظام تنهارى بينما كان جورباتشوف يطالب بمزيد من السلطات ليواجه الموقف . .

وخرجت المظاهرات تطالب بذهاب جورباتشوف . . فقد وعد بالخبز والحرية ، فلم يأت إلا بالجوع والبطالة والغلاء والفوضى . . وما لبث أن لوح لها بالعصا الغليظة . .

ويلتسين - عدو الشيوعية اللدود- تحمله أصوات الناخبين إلى الرياسة . . وبين قوى الحرس القديم من ناحية أخرى يتميزق النسيج الواهى للاتحاد السوفيتى وينذر بكارثة .

قد يسأل سائل : ولماذا لم يترك جورباتشوف الشيوعية على حالها . . مستورة بعيوبها تحت حماية الدبابات وحراسة K.G.B . .

ولماذا لم يدع الشعب مقيدا فى سلاسله كما فعل لى بنج فى الصين؟!

والجواب : إنه لم يفعل ما فعل غراما بالديمقراطية . . وإنما فعله كحل وحيد امام انهيار إقتصادى كامل . . كان النظام سيتعرى به والشيوعية ستفتضح ، والعامل لن يجد ما يأكله بسبب عدم كفاية الانتاج وانهيار الصناعة والزراعة وتخلف النظام أمام تنافس رأسمالى سيقضى عليه ، فلم يكن من الممكن الاستمرار فى الكذب . .

بعد سبعين سنة من الشعارات اختفى المخزون السلعى وهبط الروبل الى الصفر ، ولم تعد أجهزة الإعلام أو جبروت K.G.B يستطيع أن يصنع شيئا امام حقيقة سوف تفتضح ، ومجاعة سوف تعلن عن نفسها . . فلم يجد الرجل بدا من المصارحة بالكارثة . .

وبفضل تلك المصارحة ، وبفضل أوروبا الشرقية التي قدمها رشوة للرأسمالية الأمريكية ، استطاع أن يتلقى المعونات والمساعدات والكساء والغذاء الذي عبر به شهور الشتاء القاسية . . وبفضل تلك المصارحة استطاع أن يعفى نفسه من نفقات حرب عقيم في أفغانستان ومعونات لاشتراكيات فاشلة مثل اشتراكية كوبا وأنجولا ونيكاراجوا وموزمبيق ، واستطاع أن يتخفف من التزاماته نحو شيوعيات طفيلية مثل شيوعيات ألمانيا الشرقية والمجر وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، واستطاع أن يوقف النزيف العسكرى الذى كان يجرى تحت عنوان :

ثورات العالم الثالث .

وأعانتته تلك المصارحة على عبور شهور عجاف .

ولكن المصارحة كانت طوال الوقت تعمل عملها فى داخل المجتمع الروسى . . كانت تعمل على تآكل أعمدة البناء الكاذب الذى أقامته سبعين سنة من الدجل الماركسى . . وكانت الأرض تحت قدميه تتآكل هى الأخرى . . والمؤسسات تتكشف . . والنظام ينحل . . والجمهوريات تتفسخ .

وأوشكت الأرض أن تخسف به وهو واقف .

وجاءت اللحظة الحرجة . . اللحظة التى سوف تدفع روسيا فيها ثمن أكاذيب سبعين سنة نشرتها وروجتها فى العالم . . شرقه وغربه وأعانت عليه بالسلاح والنار والدم .

وحل موعد دفع الثمن المؤجل لظلم وجبروت لينين
وستالين . . كما يدفع العراق الآن ثمن استسلامه لجبروت
صدام .

والتاريخ لا يعفى حاكما ولا محكوما . . وهو قد يؤجل
الدفع ولكن إلى حين . . ولهذا سقطت امبراطوريات مثل
الامبراطورية الرومانية . . والامبراطورية الفارسية . .
والامبراطورية الأسبانية . . والامبراطورية البريطانية ، ودالت
دولة النمسا ، ودولة قرطاجنة ، ودولة العرب حينما دب فيها
الفساد .

[يقول ربنا تبارك وتعالى :

﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون ﴾ (يونس ٤٩)

لا بقاء لفساد ولا بقاء لباطل مهما اجتمعت لنصرته
الجيوش واحتشد له العسكر وسانده الكتب والنشرات .

ولا أكثر من الكتب التي كتبت في تمجيد ماركس والماركسية
والشروح التي دبجتها اقلام (بعضها لأساتذة في جامعاتنا) . .
وأخرى لأساتذة في جامعات الغرب رفعت هذه النظرية الى
مرتبة النواميس التي لا تخطيء .

وقد جاء وقت في بلادنا كان من يتعرض لماركس بنقد يزج
في السجون ويلقى به وراء الشمس . . وكانت كلمة «فلسفة

مادية» يشطبها الرقيب ويشطب صاحبها اذا كان يتعرض لها بنقد .

وفرضت الحماية على الباطل عشرين سنة لأن الحكام كان لهم مصلحة فى مناصرته . . ثم دالت دولتهم وانهمزمت عصبتهم وتغيرت الدنيا . . وتغير الفكر من النقيض الى النقيض . . وسكنت اقلام . . وظهرت اقلام . . واختفت وجوه . . وظهرت وجوه . .

وأصبحنا نحن أيضا نعيش تلك اللحظة الحرجة التى تمر بها روسيا ومر بها جورباتشوف ، نعانى من نفس الظروف التى تتطلب الانتقال من الاقتصاد الشمولى الى الاقتصاد الحر ، ومن قوانين المادية الجدلية الى قوانين السوق ، ومن حكم الفرد الى حكم الديمقراطية .

وما قال جورباتشوف انه سوف يفعله فى خمسمائة يوم . . قلنا نفعله فى ألف يوم . . ولا مفر ولا مهرب .

ولأن روسيا كانت رأس البلاء ، ولأنها هى التى دفعت بالعالم الى هذا المنحدر ، فإنها تدفع الثمن الأكبر .

أما نحن وصغار الاشتراكيات . . فظروفنا أحسن ، وإمكانات الإصلاح عندنا أفضل إذا توافرت لنا العقليات القيادية الخلافة والسياسات المبدعة .

وفى مثل تلك التحولات الكبرى يفشل دكاترة الاقتصاد بحلولهم التقليدية، وكتبهم العتيقة، وتفشل مشوراتهم المحافظة ونصائحهم الخائفة المترددة.

وفى مثل تلك اللحظات الحرجة يتطلب الموقف عقولا مبدعة، وسياسات غير تقليدية ومجازفات محسوبة.

أما الخوف فهو لا يجدى، والحلول الوسطى تعطل ولا تنجز شيئاً.

ولسنا مثل الاتحاد السوفيتى الذى كان يتألف من خمس عشرة جمهورية تفككت الآن وانهارت على رأس الجالس فى الكرملين . . . ولسنا مثل روسيا التى يختنق اقتصادها فى قبضة الشمولية الحديدية سبعين عاما . . . فقد أعفانا أنور السادات بذكائه اللماح ووفر علينا نصف الطريق فكسر هذا النطاق الشمولى وحرر القطاع الخاص، وسبق جورباتشوف بالانفتاح منذ السبعينات . .

وليس على النظام الموجود إلا أن يمضى قدما فى هذه السياسة الجريئة - بلا خوف وبلا تردد - نصف الطريق الباقى .

إن بلادنا غنية بالموارد .

فى شبه جزيرة سيناء يوجد النحاس والمنجنيز والكوبالت والسليكون والزمرد والعقيق والكوارتز . وشواطئ سيناء

ثروة سياحية ورمالها النقية تصلح لصناعة أغلى أنواع الكريستال .

وفي البحر الأحمر والمتوسط والبحيرات ثروة سمكية وكنوز سياحية .

والنيل والوديان والمياه الجوفية ثروة زراعية .

وفي أراضي الصعيد الحديد واليورانيوم .

وفي أسوان والأقصر والجيزة نصف آثار العالم .

والعقل المصري مبدع خلاق بطبيعته . . والعامل المصري

صبور حمول . . والجندي المصري هو من خير أجناد العالم . .

وهذا قول أصدق البشر محمد عليه الصلاة والسلام .

ومثل بلادنا لا تفلس الا بنظام مفلس ، ولا تتخلف الا

بقيادات متخلفة . . لأن الغنى طبيعتها والثراء قدرها . .

ومع ذلك ننظر في رعب الى ما جرى في روسيا ونظن انه

سوف يجرى علينا اذا نحن اسرعنا الخطى الى الاصلاح ، مع

أننا سبقنا روسيا بعشرين عاما في تلك الاصلاحات . . ولا

وجه للمقارنة .

ويعلن وزير التربية والتعليم (في ذلك الوقت) انه لا

مساس بالمجانبة الشاملة ، وهو يعلم أنها فساد شامل ، وأنها لا

هى بالمجانىة ولا هى بالتعللىم . . وانها استنزاف للمىزانىة بلا مقابلى . . وأنها لم تأت بقرار من حكومتها . . بل من حكومة تسكن الآن المقابر وما زالت تحكمننا من هناك . .

وىخاف سىادة الوزىر إذا أسقط المجانىة أن تحدث ثورة . . . مع ان العكس هو الصحىح ، لأن تدفق الألف من خرىجى الجامعات الفاشلة الى سوق البطالة والتسكع والمخدرات والتطرف هو الذى يمكن ان يلد الثورة . .

وإسقاط المجانىة عن الطالب الراسب هو أضعف الاىمان . . لأنها تعنى العدالة التى لا تسوى بين راسب وناجح ، وىبن مجد وفاشل . . وهى مساواة ان استمرت سىكون معناها تكرىس الفساد . . ولماذا يحاول اى طالب ان ىنجح بعد ذلك مادام يأكل من تكىة المجانىة الأزلىة بلا حساب . . ولا نعرف ماذا سىقول وزىر التعللىم الجدىد .

والخمسون فى المائة (عمال وفلاحىن) هو قرار آخر صادر من حكومة المقابر .

وغىرها وغىرها .

ولا أقل من ان نطالب ان يحكمننا أحدىاء ىباشرون صلاحياتهم ولا ىتنازلون عنها بمجرد الدخول فى التشىكل الوزارى . . وزراء لا ىخافون الا الله وحده . . إن التغىىر لا بد

قادم بهم أو بدونهم . . لأن الاحتمال الآخر- إذا لم يحدث التغيير- هو التدمير . . تدمير الاقتصاد . . وبالتالي تدمير كل امكانيات الاصلاح .

وسياسة الترقيع . . وسياسة القروض . . وسياسة تأجيل المواجهة وإلقاء المشاكل على الخليفة الذى سيأتى إلى الحكم . . كل رئيس وزراء يلقى مشاكله على رئيس الوزراء الذى يأتى بعده ويشتري دماغه . . معناها حكومة اختارت ألا تحكم . . اختارت ان تكون ديوان موظفين . . كل موظف يزيح الى الموظف الآخر عمله ليريح دماغه ويتجنب المسؤولية . . والنتيجة هى محلك سر . . او التقدم الى الخلف . . او سياسة التصريحات والمانشترات . . ثم لا عمل جاد يرفع المعاناة عن الناس . .

ان الامتحان صعب . . وفى حاجة الى عقليات خلاقية وسياسات مرنة وحلول غير تقليدية . . ومجلس الوزراء لا يصح ان يكون ديوان موظفين يرفع الأصابع بالموافقة على كل اقتراح . . أو وزراء تشريفة معظم نشاطهم فى المطار!

فى لقاءات متكررة مع زوار أجنب وسياح قال لى اكثر من سائح من جنسيات مختلفة: إن حلم حياته أن يبيت ليلة فى

تابوت خوفو داخل الهرم الأكبر وأنه مستعد أن يدفع كل ما يملك فى سبيل تلك الليلة ولكن للأسف وزارة السياحة لا تسمح . . وكنت استمع اليه فى دهشة وهو يصف تلك الليلة بأنها اشبه برحلة فى سفينة فضاء، رحلة فى فضاء التاريخ . . وعناق للأسرار المبهمة . . وكلام كتير شاعرى غير مفهوم . وفى العالم مجانين بهذا التابوت وبأسراره . . ومجانين بالهرم وألغازه . . ومجانين بأختاتون وأبى الهول . . ولو كنت وزير سياحة لوجدت الف وسيلة ووسيلة أبيع بها الأحلام لهذا العالم الظمآن اليها . .

وكل المطلوب هو أن نخرج من ثوب البيروقراطية ونفكر بحرية أكثر، وبمرونة أكثر، وبأسلوب غير تقليدى .
إنهم فى أمريكا يحجزون تذاكر من الآن لرحلات فضائية قادمة بعد سنوات الى القمر . . وهم يعرفون كيف يبييعون الأحلام للزبون المناسب .

وبلادنا أغنى بلاد الدنيا فى أحلامها وكنوزها وأساطيرها .
ولكن مطلوب تفكير غير تقليدى . . ومطلوب عقليات خلاقه . . وسياسات مرنة . .

هل نحن أكثر شيوعية من الصين التى ألغت المجانية من جامعاتها وأصبحت كل جامعاتها بمصروفات وكل مستشفياتها

بأجر والصين أفقر بلاد الله . . لماذا نتمسك بالخطأ . . لماذا نخاف الإصلاح . . لماذا نعطي الحق للجامعة الأمريكية بأن تأخذ خمسة آلاف دولار مصاريف من الطالب المصرى ليلتحق بها (أى حوالى عشرين الف جنيه مصرى) ولا نعطي لجامعاتنا - التى تتسول - عشر معشار هذا الحق؟! وكيف سنرتقى بالتعليم، وكيف نطور المعامل، وكيف ننهض بالمختبرات وميزانية الجامعة تحت مستوى الفقر؟!

والحلول المطروحة هى كالعادة الحلول التقليدية . . طلب التبرعات من أجل الخير . . وتسول القروض والمعونات . . وكالعادة تذهب كل تلك الأموال فى بالوعة بلا قرار اسمها وزارة اللاتربية واللاتعليم ، وتخرج أجيال هزيلة تحتل المقاهى ونواصى الشوارع . .

ان التعليم هو عصب المستقبل . . ولن نستطيع ان تقتحم المستقبل بدون علم وجامعات هذا حالها . .

والمستشارون المحترمون الذين ينصحون دائما بأن مجانية التعليم هى أكبر المكاسب الاشتراكية التى لا يجوز المساس بها . . يعلمون تمام العلم انها أحد أكبر خسائر الاشتراكية التى يجب الإطاحة بها . . ولكنه الخوف . . وعبادة الاصنام التى عبدها الآباء . . وعقلية الموظف المصرى الجالس القرفصاء . .

وغريزة تجنب المواجهة والقاء المشاكل لمن يأتي بعدنا . . وإيثار الأمان بعدم تغيير أى شىء وعدم المساس بأى شىء . . وهى عقليات لا تصلح لأن تقود . . لأنها لا تملك الشجاعة على اتخاذ القرار .

ولا مكان لتلك العقليات فى لحظات التحدى التاريخى ، وفى ساعات تغيير المسار ، وفى المنعطفات السياسية التى يلزم فيها اتخاذ مواقف جديدة . . والامتحان صعب ووقت الاجابة محدود والزمن يمضى بسرعة .

وباق من الزمن التاريخى ساعة على دق الجرس وجمع الأوراق .

ولن تنفع الأجوبة التقليدية . .

ولن تجدى سياسة القروض والاستمرار فى التسول . .

ولن تنفع عقليات ديوان الموظفين فى حل مشاكل مصر .

حكاية الامار...!!



الشارع العربى تحول الى أزقة
ومنعطفات وفقد وحدة الاتجاه .

وأنصوّر أن الشعب العراقى فى
بغداد يعيش بوجه مكسور من الذل وهو
لا يجد اللقمة ولا الماء ولا الوقود ولا

الكهرباء ولا الأمن . . يتجه بكل كراهيته الى صدام وحزبه
وحكومته ، ويتحول بكل حقه على أمريكا وعلى العرب
وعلى كل من تحالف معهم ليذيقه هذا الهوان . . والجوع لا
يعرف المنطق ولا التحليل السياسى ولا البحث الفلسفى فى
الأسباب والمبررات ، وإنما هو يتحول الى ثورة وغل وانتقام من
كل من أذاقوه تلك الكأس . .

ولا اعرف متى يهدأ ذلك الانتقام ويتحول الى تعقل
وحكمة وتفهم لما حدث وكيف حدث !؟

ومتى يلتمس الأعداء لما فعل الأخ بأخيه . . ومتى يدرك
ذلك الشعب المطحون انه مشترك فى المسئولية ، وأنه قد أسهم
فى الجريمة حينما أسلم قيادة لظلم صدام والى ظلمات حزب
البعث وفجوره .

وعلى الجانب الآخر . . حيث الأخوة الأعداء فى حكومة
اليمن والأردن والسودان ومنظمة التحرير الفلسطينية لا أرى

حلا سوى ان تخرج تلك الوجوه التي شاهت وساندت
الذجال ووقفت مع الظالم . . وفي بلاد الحرية والديمقراطية
تسقط الانتخابات أمثال تلك الزعامات وتخرجها من
الحكم . .

أما في بلادنا فإن الحكام لا يخرجون الا بالموت او القتل او
الانقلاب .

وهي كقيادات فقدت صلاحياتها ومصداقيتها . .
والصراعات العربية ستظل باقية ما بقيت تلك الوجوه ، وربما
اظهرت المسألة وأبظنت اللؤم ، وربما صافحت بيد وطعنت
بالأخرى . . فهي اسماء لا خير فيها ولا اجتماع على رأى
وهي موجودة .

وإذا استمرت تلك القيادات فلن تشهد فى الجامعة العربية
الاثميلية ملة ورواية عبثية بلا نهاية . .

وعلى الجانب الأمريكى فإن الشعور بالزعامة ونشوة النصر
يتحولان الآن الى احباط ، والستار يرتفع تدريجيا عن حقائق
الحرب ومقدار الخراب وعدد القتلى وكمية الخسائر التى
الحقتها القوى العسكرية العملاقة بشعوب المنطقة . . ثم ما
جرى على الأكراد بعد العرب والألوف منهم يسقطون من
الجوع والاعياء كل يوم . . وما زال صدام طليقا . . وما زال
يفسد ويتأمر ويقتل . .

ولا شك ان الاحساس بالذنب يؤرق بوش . . فنراه يدفع
بالعالم ويحشد المشاعر لنجدة المردين الأكراد . . ويبعث
بالطائرات الأمريكية لتسقط عليهم الطعام والخيام والأدوية . .
ولم يعد خافيا ما كسبه الاقتصاد الأمريكي والاقتصاد
البريطانى و الاقتصاد الفرنسى من هذه المجزرة . . فالدولار
يرتفع والبتروال ينخفض ، ومصانع السلاح تعمل بكل طاقتها
ومشاكل البطالة تتقلص . . والغرب الآن له شبه قاعدة دائمة
فى قلب المنطقة النفطية . .

والمأزق الباقى الذى كان يسبب الصداع لبوش هو
اسرائيل .

ان اسرائيل ترفض علنا القرار ٢٤٢ للأمم المتحدة برد
الأرض فى مقابل السلام ، كما ترفض المؤتمر الدولى ، كما
ترفض ايقاف بناء المستوطنات ، وهى ماضية فى سياستها لا
تعبأ بأحد .

انها ترفض ما كان يرفضه صدام منذ اسابيع . . وتحدى
قرارات الامم المتحدة كما كان يتحداها . . مع فارق كبير . . هو
أن رد أمريكا ورد بريطانيا ورد فرنسا ورد المجتمع الغربى على
الصفلى الاسرائيلى يجرى هذه المرة فاترا . . هادئا . .
ورزينا . . ودودا . .

والعالم الآن يشهد ويرى أن الحرب التى لبست ثوب
العدالة والمبادئ . . لم تكن سوى حرب مصالح كالعادة . .
وحيثما جاءت ساعة المبادئ . . سكت مدعو المبادئ وفترت
اصواتهم .

هل نقول انها الفضيحة الامريكية .

ولكنها ليست اول فضيحة . . لا لأمريكا ولا للغرب . .
وبالأمس كان الاستعمار ينهب ثروات الشرق الاوسط . .
ويخطف الافارقة ليبيعهم فى اسواق العبيد . . وكان الظلم
فاضحا جهير النبرة . .

وحيثما دخل الاستعمار الى المنطقة العربية قسمها الى دول
ودويلات وكانتونات ووضع بينها الحدود الوهمية التى
اشتعلت الحروب وفجرت الخلافات .

واليوم يستأنف الظلم مشواره ولكن بنبرة هامسة وبأساليب
مستترة وطرق مأكرة . . اليوم هو غزو فكرى وغزو
اقتصادى . . فإذا تحركت الجيوش فهى تتحرك تحت مظلة
محكمة من المبادئ والانسانيات . .

واليوم الاستعمار له وكيل هو اسرائيل . . وله اذرع خفية
بقدر عدد العملاء فى كل بلد . .

حتى سويسرا البلد الأوروبى المحايد الذى لا يرفع سلاحا على أحد . . نراه يفتح بنوكه للأموال المنهوبة والمليارات المسروقة من الشعوب العربية والافريقية والاسيوية والتي كان يحولها امثال ماركوس ودوفاليه وصادام وبوكاسا وحسين ارشاد وسياد يرى وتشاوتشيسكو ومانجستو وموبوتو لتستقر فى حسابات سرية لا يدرى بها احد . . وعادة لا يطول الانتظار . . فما تلبث تلك الزعامات ان تسقط او تقتل او تغتال او تنقلب عليها شعوبها . . وما تلبث ان تختفى المليارات المسروقة فى السرايب السويسرية فلا يعثر عليها أحد . . وتبتلعها المافيا الجديدة . . مافيا الدولار .

مسكينة شعوب افريقيا . . وشعوب الشرق الأوسط .

ولكن لإخواننا الاوروبيين منطق آخر . . فما يحدث هو فى تصورهم امر طبيعى جدا ومنطقى جدا . . امر طبيعى جدا اذا رأى أحد حمارا سائبا فى الطريق ان يركبه . . أى غرابة فى هذا؟؟؟!!

صحيح . . أى غرابة فى هذا ؟

انما الغرابة ان تكون حمارا فى عالم ذكى متعلم متقدم . . وفى القرن العشرين الذى صعد فيه الانسان الى الكواكب ومشى على القمر . .

ان تكون حمارا فى هذا الزمان . . وان تكون سائمة
ترعى . . وان تسلم ذنك وقفاك لكل قارع !
هذا هو الأمر الغريب .

ولكن يا سادة . . هذا هو ما يحدث بالضبط .

ولابد لنا ان نعترف بالحقيقة مهما كانت مخجلة ، فنحن فى
غاية التخلف . . والذين يستغلوننا غير ملومين . . فأموالنا
وثرواتنا تركة سائبة . . والأعداء فى داخلنا اكثر قسوة علينا
من المتربصين بنا فى خارجنا .

ولا أريد أن امضى كثيرا فى سيرة الأعداء والعدوان . .
فالقانون والسنة التاريخية تقول : إنه لا يوجد عدو طول
الوقت ولا صديق طول الوقت . . وما يحدث فى العادة هو
تبادل الأدوار مع مرور الزمن . . فمن كان عدوك يمكنك
بالذكاء أن تجعله صديقك . ومن كان صديقا لك يمكن ان
ينقلب بغباتك الى عدو لدود لك .

وهذا هو مفتاح الموقف الآن . .

كيف نقود الحوادث لنجعل من الأعداء أصدقاء . ومن
الخصوم أعوانا ؟

لن يحدث هذا إلا باستبعاد رؤوس الإجرام أولا . . ثم
الجلوس معا لتحدث بلغة المصالح والتجارة والمنافع . .
والسلام دائما منافعه اكبر ، والتعاون خبراته أوفر .

وهذا سوف يحتاج الى سياسة مرنة وعقول متفتحة وقلوب
تتقن فن النسيان والتسامح .

وقد يسأل سائل : ولماذا لا نتسامح مع رؤوس الإجرام
ولماذا لا نكسبهم هم ايضا .!؟

والإجابة انهم فقدوا رصيدهم . . وأنا لن نكسب بالتعاون
معهم شيئاً ذا بال . . فقد انتهوا بالفعل وأصبحوا أصفارا . .
وأصبحت تركة الآثام والأكاذيب التي يحملونها اثقالا معوقة
لا تسمح لهم بحرية المناورة .

ولكن كيف نستبعدهم بدون انقلابات وبدون دم؟ .

أقول تستبعدهم شعوبهم بالأسلوب الديمقراطي ، وهذا
يقودنا الى الحل الحقيقي . . والوحيد . . ان يكون للشعوب
رأى مسموع فى حكامها . . وان تكون هناك انتخابات وأن
تكون هنا ديمقراطية . . وأن يكون للفرد العربى صوت وكرامة
وحقوق .

ورغم أن هذا كلام داخلى جدا . . إلا أنه لا يوجد حل
ممكن لمشاكلنا الخارجية ولعلاقتنا العربية بدونه . . بل ان
الكلمة العربية لن تتوحد بدونه . . والموقف العربى لن ينشأ
بدونه . . ولن يولد مواطن عربى له كرامة بدونه . .

وأن يكون لأمریکا ضغط للاسراع بهذا التطور هو سياسة
تحمد لها . . وقوة دفع مشكورة تذكر لها بين ايجابيتها
وسلبيتها .

وكما قلت : ان الخصوم ليسوا اعداء فى كل شىء . كما أن
الأعداء ليسوا اصدقاء فى كل شىء ، ولم يعد من الممكن بناء
المستقبل على اساس العداوة المستمرة بين الشرق والغرب .

وكما قلت فإن يفعله المستغلون ليس دائما جنایة قانونية ما
دام الآخرون مغفلين . . والقانون لا يحمى المغفلين . .
وسوف يُغفر لهم اننا كنا دائما مغفلين .

وأنا فعلنا بأنفسنا أكثر مما فعلوا بنا، وقد فعل صدام
العراقى بالشعب العراقى ما لم يفعله بختصر باليهود .
وهذه النظرة الى النفس لا بد منها للانطلاق من جديد .

ولاشك أننا فى حاجة الى علوم الغرب وصناعة الغرب
وزراعة الغرب وفنون الغرب لبنى ونعمر ونتقدم ونأخذ
مقعدنا فى القطار السريع الذى يلهث نحو الغد .

واسترداد أراضينا من اسرائيل بالاتفاق أفضل من إراقة الدم
فى حروب لا يعلم احد مداها . .

فلنمد أيدينا بقلب مفتوح وب عقلية متفتحة نحو جميع
الخصوم ، ولننس حكاية الحمار .

فلا لوم - كما قلت - على من يجد حمارا سائبا في الطريق
إن ركبه .

وهل كان العكس لو حدث (أن يركب الحمار على اكتاف
الناس الأذكياء أولى الألباب والعقول) لو فعل ذلك الحمار . .
أما كان الأمر يبدو ظلما أفحش . .

نحن إذن أمام سنن الهية تعمل . . هي في النهاية سنن
حكيمة وعادلة إذا نظرنا نظرة واسعة ومحيطية الى اتساع
التاريخ وشموله .

وسوف يبدو لنا حينئذ أن ما كان يظهر أنه ظلم في
مرحلة . . قد فعل فعله في ايقاظ العقول والمشاعر ليثمر عدلا
في مرحلة تالية .

وان العصا الغليظة كانت اداة ربانية ناجحة لتأديب
الكسالى أمثالنا وإيقاظهم . . ولو ان الله ترك الكسول على
كسله بلا عقاب لكان اهمالا لا يجوز في حقه . . وكان في
ذلك تشجيع لكل العاملين لأن يكسلوا وكانت النتيجة توقفا
للحركة في الكون وتوقفا للعمار في الدنيا .
هو ابتلاء وتربية . .

تربية لسلاات بشرية يصنعها الله على عينه ويربيها مرة
بإغداق الثواب ، ومرة أخرى بإنزال العذاب لحكمة يريد بها في
النهاية . . هي إظهار الحق .

ونرجو الله ان نتعلم ونعتبر من دروس التاريخ . وأن نتأدب الأدب العالى لنتخطى فى مراحل التاريخ القادمة ذلك الموقف الذى رابطنا فيه طويلا (مربط الحمير) الذى رابطت فيه القارة الافريقية مع الفقر والمرض والأمية والبدائية قرونا طويلة .

ولا مدعاة لليأس . . فقد كانت لأوروبا رقدة طويلة فى العصور الوسطى المظلمة . وكان الطاعون والكوليرا والتيفوس والحروب الطائفية تحصدهم . . وكانوا يأخذون علمهم وتقدمهم عنا . . ويترجمون العربية الى لغاتهم ليتعلموا علومنا .

وغرقت أمريكا قرونا فى حروب الشمال والجنوب وفى ظلام العنصرية قرونا أخرى .

واقترنت الجارتان إنجلترا وفرنسا فى حرب المائة عام . . ثم احترق الجميع فى أتون الحربين العالميتين الأولى والثانية .

ثم خرجوا من هذه المخاضة المظلمة الى انوار عصر النهضة .

انه ليل التاريخ ونهاره يتداولان على الأمم والشعوب .

كما يتداولان على نصفى الكرة الارضية . .



ويقول القرآن في كتابه المحكم :

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾

ويقول عن اقوام سبأ!

﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾

(تماما كما فعل بالعراق والخليج).

هذه سنة الله في تأديب خلقه بالثواب والعقاب فلا داعى

للىأس .

المهم ان نعى الدرس ونفهم ونعتبر ونتغير وأمامنا الزمن

طويل .

وعمر الحياة على الأرض أربعة آلاف مليون سنة . . نصيب

الانسان منها بضعة ملايين قليلة (من مليون الى عشرة ملايين

سنة فى تقدير البعض) . . فهناك فرصة . . ويوشك نهار

الحضارة ان يعود فيدركنا ، وما كان الله ليغير ما يقوم حتى

يغيروا ما بأنفسهم .

فلنغير ما بأنفسنا لتعود شمس الله من الشرق . . كما حدث

أيام بابل ومنف وبغداد والأندلس . . ايام كان التاريخ يأخذ

تعليماته منا ، وكان مربوط الحمير فى بلاد الخواجات .

اليهود.. الى أين..؟!!

لا أعرف لماذا يبكى اليهود أمام حائط
المبكى؟!

فلسطين .. أخذوها!
والفلسطينيون .. طردوهم ..

والقنابل الذرية .. امتلكوها
والصواريخ .. صنعوها
وشعوب العالم .. تحدعوها .
وأمریکا .. استنزفوها ..

إن وعد بلفور هو الذى زرع هذا السرطان فى الشرق
الأوسط وزرع معه المأساة والتشريد والحرب والدمار والصراع
فى المنطقة .

وبريطانيا هى التى ساندت الجريمة ..

وأمریکا التى مولت وأظلت ورعت وربت ووضعت كل
امكاناتها فى خدمة اسرائيل .. وفعلت ما هو أكثر .. ضحت
بكرامتها وسمعتها كأمة تمثل الحرية والعدالة وحقوق
الانسان .. لتكون رهن اشارة ثلاثة ملايين اسرائيلى يدوسون
على قيم العدالة والبراءة . ويباشرون القهر والظلم والفساد كل
يوم .. فإذا صرخ العالم واحتج قالت امریکا: «فيتو» وقذفت
بها فى وجه اجماع هيئة الأمم المتحدة .

وأمریکا التی یموت الملايين من شبابها بطاعون
المخدرات . . تعلن ان مرتزقة اسرائيل تحمى بارونات
المخدرات فی كولومبيا . . فتسكت .

وتعلم ان اسرائيل تقوم بتهريب التكنولوجيا الامريكية
و تسملها الى جنوب افريقيا . . فتكتفى بالعتاب .

والى أى مدى يمكن أن تضحى بمبادئها الأخلاقية
وشعاراتها فى سبيل إسرائيل؟

الى اى مدى يمكن ان تذهب جريمة امريكا فى سبيل
اسرائيل . .

وأى خدمة تقدمها اسرائيل لأمريكا تساوى تلك التضحية .
انها لا تقدم لأمريكا خدمة . بل وصمة . . فقد أصبحت
الوجه القبيح لأمريكا امام العالم .

وهى لا تصنع لأمريكا قاعدة عسكرية فى الشرق الاوسط
بل زلزالا . . وامريكا تعلم - كما نعلم نحن - ان التاريخ لا
يستمر على حال . . لا الضعفاء يستمرون ضعفاء . ولا الأقوياء
يستمرون اقوياء . . هكذا تعلمت وتعلمنا من قراءة ارشيف
الماضى .

فأين الروم وأين الفرس وأين امبراطورية النمسا؟ بل وأين
الامبراطورية البريطانية التي كانت لا تغيب عنها الشمس؟

ان المخدرات تأكل أمريكا من الداخل ، واليابان الفتية تأكل
اسواقها الاقتصادية من الخارج ، والمانيا الناشطة نحو الوحدة
سوف تزحف على أوروبا بالمارك الألماني والصناعة الألمانية . .
وسوف يتراجع الدولار الى ما وراء الاطلنطى ويخرج من
المحيط الهادى . . وسوف تتغير موازين كثيرة فى المستقبل .

ولن تظل الدول العربية منقسمة على نفسها الى الأبد ،
وبعد سنوات سوف يصبح العرب أغلبية داخل اسرائيل ذاتها
بدون حرب بمجرد ازدياد معدلات التناسل العربى على
التناسل الاسرائيلى .

ولن تنفع اسرائيل قنابلها الذرية .

لأن أى قنبلة تلقيها اسرائيل فى فنجان الشرق الأوسط
سوف ترتد عليها قبل غيرها بالإشعاع الذرى والغبار الذرى
والوبال الذرى . . ولن يقف العالم ساكتا على التلوث الذى
ستلقيه اسرائيل فى وجهه ، ولن تنفع اسرائيل صواريخها بعيدة
المدى .

فكل الدول العربية سوف تملكها وبعدها اكبر .

واجتماع كلمة العرب وحدها ستكون سلاحا امضى من
جميع الأسلحة .

وهذه ليست نبوءة . . بل حقيقة . . لأن استمرار عدوان
الاقلية الاسرائيلية وسط بحر من الأغلبية العربية استحالة
تاريخية .

وستظل اسرائيل جسما غريبا مصيره الحتمى ان ينكمش
ويحاصر ويتوصل ويذوى وينتهى امره . . وفي لحظة الأزمة
وحين دقت طبول الحرب لم تكن اسرائيل هى العامل الذى
كسب لأمريكا الحرب . بل العرب . . ولم تساهم اسرائيل الا
بسكوتها . . إن العرب رغم ضعفهم وتفرقهم مازالوا هم القوة
الحاسمة فى المنطقة .

وأى تصور غير ذلك أحلام وأوهام .

والزمان أمامنا طويل .

والإسلام من ورائنا . . قد هزم التتار . . وأخرج
الصلبيين .

فأى غرابة ان يخرج خلفاءهم .

ولا إله إلا الله . . محمد رسول الله .

محدث التاريخ.. مازال يعمل

الزلازل مستمر . .

ومحركات التاريخ مازال يقلب
الأرض ويجعل عاليها سافلها .

تمزيق صور لينين وإزالة تماثيله . .

وإزالة صور كارل ماركس من الجدران . . وهزيمة الشيوعيين
فى انتخابات موسكو وليننجراد وكيف . .

عودة الملكية والأحزاب الى روسيا . . شطب كلمة
الاشتراكية من دستور تشيكوسلوفاكيا ومن جمهورية روسيا
الاتحادية .

انفراط حبات المسيحية الشيوعية . . وتخلي الأحزاب
الشيوعية عن السلطة فى بولنده والمجر ورومانيا وبلغاريا والمانيا
الشرقية وتشكوسلوفاكيا ونيكاراجوا واخيرا منغوليا والبايما
واثيوبيا .

جراسيموف يقول: ان جورباتشوف اصابة الفزع لقرار
الانفصال الذى اعلنه برلمان لتوانيا . . لقد فكر فيما ستفعله غدا
لاتفيا واستونيا وملدافيا ثم جورجيا واوكرانيا وازرباجان
وازباكستان . . وطاجيكستان وشعر بالأرض التى يقف عليها
تميد من تحته ، وأحس بالزلازل يصل الى مواقع قدميه .

إن عملية الازالة التى بدأها قد اشتملت على إزالته هو
وعلى إزالة الأرض التى يقف عليها هو أيضا . .

ولم يكن غريبا ان يطلب مزيدا من السلطات ليستطيع
التعامل مع المردة الجدد الذين خرجوا من القمام . . وكان اول
ما فعل ان ارسل اندارا الى لتوانيا بالرجوع عن طلب
الانفصال . .

عالم قديم ينهدم ، وعالم جديد يولد بدون حرب وبدون
ان تطلق رصاصة وبدون ان تسيل قطرة دم .

مذاهب مسلحة حتى الاسنان تختفى كالسراب . .
وطواغيت يذوبون كتماثيل الشمع ، وجبابرة يتبخرون
كالدخان . . وشعارات يمحوها نور النهار كما يمحو الظلمة .

ترى ما رأى المثقفين والرواد الذين كرسوا حياتهم واقلامهم
للدعوة وللترويج لهذه الاشتراكيات؟! وما شعورهم الآن وقد
سقطت معبوداتهم واصنامهم كما تسقط اوراق الخريف؟!!

وأين هم . . ؟!

ولماذا سكتوا فجأة . . ولماذا اصابهم الخرس؟!!

ونحن . . إلى متى نسير خلف سراب انتهى؟ وإلى متى
نترك بلادنا غارقة فى المستنقع الاشتراكى الذى ساقها

عبدالناصر اليه ومرغها في احواله ، وفي الخمسين في المائة
عمال وفلاحين وخراب القطاع العام ومجانبة اللا تعليم واللا
تربية ، والظلم الواقع على الملاك من المستأجرين ، والغبن
الواقع على اصحاب الأرض من الفلاحين .

متى نبدأ في إزالة الأساس الفاسد لنبنى على اساس سليم؟
وهل نستطيع . . ؟

وهل استطاع جورباتشوف ان يخرج روسيا من أحوال
الماركسية ومن المؤامرة اليهودية الكبرى التي خنقت الشعب
الروسي وهبطت به الى الحضيض . .

لقد أخرجها بالكلام . .

وبقى ان تخرج بالفعل .

بقى أن تملأ الرفوف الخالية في المتاجر السوفيتية بالبضائع
والمنتجات والأطعمة بدون اللجوء الى الديون والمعونات
والقروض . . ولن يكون هذا امرا سهلا .

ان الاشتراكية لم تدخل بلدا الا دخلت معها القذارة
والكسل والسلبية واللامبالاة والتواكل واخلاقيات الحقد
والنفاق وتملق الرؤساء . . وكانت نتيجتها دائما هبوط الانتاج
والخراب والانهيال الاقتصادي .

وكان هذا يحدث تحت لافتات براقة كاذبة عن الرخاء والوفرة والعدالة . . ومقالات صحفية تمجد الحكام . . وبرامج تليفزيونية تشيد بالإنجازات . . ومسيرات شبابية تهتف . . ومواكب تطبل . . وفنون مأجورة تزمر . . بينما الرأى الآخر يمنع . . والألسن التى تقوله تقطع . والاقلام التى تكتبه تقصف!

ولهذا كانت الصورة الظاهرة دائما بهيجة وردية . . والحقيقة الخافية تعسة دموية .

كانت الاشتراكية عملية مرادفة لتدمير البنية الاخلاقية للأأم، ولم تكن مجرد تغيير للعلاقات الاقتصادية .

والذى حدث مع قرارات الاشتراكية فى مصر فى الستينات انها كانت ايذانا بتدمير الشخصية المصرية وتدمير لهيكل العلاقات الاجتماعية فى مصر ولم تكن مجرد تغيير اقتصادى . والذى حدث فى روسيا على مدى سبعين عاما كان ابشع من ذلك بكثير .

ولهذا لن تخرج روسيا من أوحال الاشتراكية بسهولة لأنه لن يكون مجرد خروج من شكل اقتصادى، بل خروج من اخلاقية هابطة ودمار معنوى، وتلف اصاب النفوس والأرواح .

وأمرض الأجساد يمكن ان تشفى بسرعة . . أما خراب
النفوس ودمار الأرواح فإنه قد يستغرق اجيالاً ليشفى .

ولم تسعف جورباتشوف السلطات الكثيرة فى ان يصنع
فضيلة . . فالسلطات الواسعة تستطيع ان تدمر بأسهل بكثير
من أن تبني .

وبناء الانسان اصعب بكثير من هدمه .

وما تبقى من فصول فى هذه الحلقات التاريخية التى نراها
أمامنا اليوم على مسرح العالم لن تكون أقل إثارة مما مضى
منها .

الأيدى الخفية..!

ما أكثر ما ضاعت البراءة فى هذا
العصر!!

ضاعت البراءة حتى من وجوه
الأطفال . . وأصبحنا نرى النظرات
المتآمرة حتى فى وجوه أولادنا .

دول عظمى يحكمها حكامها بنفس عقلية بارونات
المخدرات .

السينما التى يفترض ان تقدم لنا الروانا من الواقع ، أصبحت
لا تقدم الا العنف والجنس والدم والرعب . . واصبحت بذلك
تقدم واقعا مكذوبا . . وبالتالي تصبغ عقول المشاهدين بهذه
الصبغة الكاذبة .

المادة فى الروايات هدف . والحب وسيلة . . والثراء هدف ،
والدين وسيلة . . والحكم هدف . والمبادئ وسيلة . . والعرى
هدف ، والموضات وسيلة . . والانحلال هدف . . والحرية
وسيلة .

وفى امريكا وأوروبا وانجلترا كان الشذوذ الجنسى وتقنين
الزنا هدفا ، والأسلوب الديمقراطى والأغلبية البرلمانية وسيلة
(بتمريه تلك القوانين فى البرلمان) .

وفى الحروب الأخيرة كان الدمار الشامل هدفاً ، . والعلم
والتكنولوجيا وسيلة .

هل هى بداية انهيار مخطط للقيم .

وهل وراء هذه الظواهر أيد خفية تعمل فى تضامن من وراء
الكواليس السياسية ، ومن خلف مسرح المجتمع ، ومن داخل
الصحافة والإعلام والسينما والمسرح ، ومن خلال منصات
صنع القرار؟!!

اننا نقرأ فى كتاب التلمود (وهو الكتاب الذى يضم التراث
الدينى والشعبى لليهود) :

ان هذا الانحلال مقصود ومراد ومخطط له . . . وانه سوف
يصنع بأيد عامدة متعمدة تمهيدا لمجىء دولة يهوذا .

ونقرأ أن نفس الأيدى الخفية كانت وراء إشعال الثورة
الفرنسية والثورة البلشفية والحربين العالميتين الأولى والثانية ،
وصعود امثال اتاتورك على مسرح الأحداث فى تركيا ، وإمداد
امثال صدام حسين بالسلاح والنفخ فيه حتى انفجر فى حرب
الخليج .

إن الأخطبوط الصهيونى المنتشر داخل اجهزة صنع القرار
وداخل اجهزة الإعلام وداخل مصانع السلاح ، وداخل اجهزة

التخاير والتجسس ، وداخل البنوك وصناديق المال . . له آلاف الأيدي التي تعمل عامدة متعمدة على إحداث هذا التدهور .

ولأحب ان ابالغ لدرجة تبرئة جميع الأجناس واتهام اليهود وحدهم . . وأعتقد انه رغم ان دور اليهود تاريخيا كان له اكبر نصيب فى إحداث هذا التخريب . . إلا ان الكل مسئول ، والكل مدان ، وأن الذين نذروا انفسهم لهذه الرسالة الهدامة ليسوا كلهم يهودا . وإنما هناك مساهمون جدد وشياطين جدد من كل الأجناس جندوا أنفسهم لهذه العصابة الإجرامية التي تجر العالم كله الان إلى الخراب .

وهناك كثرة من المتطوعين استهوتهم اللعبة فدخلوا فيها لمجرد حب المغامرة وهواية الشر . . والبعض يعلم تماما ما يفعل . . والبعض موعود بالمناصب . . والبعض موعود بالملايين . . والبعض يعمل لحسابه . . والبعض يفتح مكاتب اجرامية حرة . . والبعض مجرم لا متم .

ولكن المؤكد أن هناك موجة من الإجرام المخطط والعنف والانحلال تكتسح العالم ، واكثر ضحاياها من العالم الثالث الفقير المهزوم .

ونظرة عابرة على أبار الكويت المشتعلة ، وطواير الأكراد الهائمة ، ومواطنى الحبشة الذين يموتون من المجاعة ، وأطفال

البانيا المشردين ، ومواطنى يوغوسلافيا الذين يقفون على حافة الحرب الأهلية ، وجمهوريات روسيا التى تتفكك مثل لعبه من البلاستيك ، والفلسطينيين الضائعين فى ارض الشتات ، وكوبا وأنجولا والساندنيستا وفقراء الارجنتين والمكسيك وبقاى دول امريكا اللاتينية المتسولة والصين الحبلى بطوفان . .

تلك النظرة العابرة تشى بمنحدر مظلم تتسارع اليه الحوادث .

والعالم الآن الذى أصبح أحادى القطب تقف على رأسه امريكا تلوح بعضلاتها الحديدية . . هذا العملاق المنفرد بالسيطرة . . لا تثير قوته العسكرية اطمئنانا . . لأن القوة العسكرية وحدها لم تعد كافية لضمان استمرار الزعامة .

وانما القوة الاقتصادية مطلوبة بنفس المقدار . . والبنية الاجتماعية الصحية ركن ثالث هام لاستمرار حياة الحضارات .

والاقتصاد الامريكى مهدد من جانب المارك الألماني الصاعد والين اليابانى المكتسح . . والانفاق الأمريكى اصبح انفاقا كثيرا مترهلا منههددا بعجز الميزانية . . كما ان البنية الاجتماعية الأمريكية تأكلها المخدرات والجريمة والعنف من الداخل .

والعملاق الكوني مهدد بالسقوط فجأة كما صعد فجأة ،
وماذا بعد انهيار السيطرة الأمريكية . . الا عالم يموج فى بعضه
البعض . . ومستقبل مجهول الهوية مثل علامة استفهام كبيرة
مربية .

أين نحن من كل هذا الذى يجرى!؟

هل نستطيع الخروج من الهيلكية الاشتراكية والحاكمة الجبس
التي أدخلنا فيها عبدالناصر منذ الستينات!؟

هل نستطيع تحرير اقتصادنا السجين فى زنزانة القطاع العام
لننتقل ونعمل ونتج ونلحق بالركب الذى يهول!؟

هل نستطيع ان ننجح فيما بدأناه من خصخصة القطاع العام
الذى أوشك على الإفلاس ، إن لم يكن أفلس بالفعل؟

هل نستطيع أن نتجاوز مشكلة الرغيف الى المشكلة
الأكبر . . مشكلة التعليم . . والاسهام الحضارى!؟ . .

لا أقل من قوانين جديدة ثورية وحلول غير تقليدية ومتابعة
يومية يمكن ان تخرجنا من المأزق . . ليست القروض ، ولا
القاء المشكلة على رئيس وزراء قادم ولا تأجيل المواجهة الى
الغد ولا التصريحات الواعدة وإنما العمل الجاد والبناء كى
تخرج من هذه الوحدة الاقتصادية التى تردينا فيها .

والمشكلة كبيرة . . اكبر من كل الفتاوى . . وهى تحتاج الى اخلاقيات جهاد وقيم عمل . .

وهذا يعيدنا - كما قلت - الى الأيدي الخفية التى تعمل على تفتيت الهمم وتهديم القيم ونشر الانحلال فى تيار عالمى يسرح طليقا ويخرب فى طريقة كل شىء ويعوق الاصلاح فى كل مكان .

وليس كافيا ان يخرج علينا شيخ اصولى فى يده شمروخ ليقول لنا :

الإسلام هو الحل .

فأى إسلام يريد؟ . . إسلام التكفير والهجرة . أو إسلام حزب الله الايرانى ، أو إسلام عصاة الناجين من النار ، او إسلام صدام؟ . . إنهم كلهم رفعوا راية : الإسلام هو الحل . . فأى من الاسلام هؤلاء يقصد؟

إن العبارة لا توضح المطلوب .

والإسلام نفسه يقول : ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

إذن . . بنفسك فأبدا . . وليس بحمل الشماريخ على غيرك .

وهذا هو المفتاح

وبنفسك فأبدأ . . اخضعها أولاً لشرعية الله قبل ان تخضع
غيرك . . تخلق بالشجاعة والصدق والسماحة والعفو وحب
العمل وحب الاتقان وحب الخير قبل ان تحاول بالعنف
والاكراه أن تخلقها فى غيرك .

ان الإيمان واخلاقيات الجهاد وقيم العمل بضاعة نفسية
اولا . . تنشئتها تحتاج الى ثورة داخلية تعلنها على نفسك .
وصراع وجودى باطنى يطهرك ويعلو بك على ماديتك . .
وهى تربية ليست بنت يوم وليلة ، وليست حصاد خطب
وهتافات . وليست بنت الانقلابات العسكرية وعصابات
العنف . .

إنه الجهاد الأكبر .

وليس دون الجهاد الأكبر ما نستطيع به ان نصد هذا
الطوفان .

فهل ظهر رجال هذا الجهاد . . أم انهم سيولدون من
مخاض العذاب القادم . . أم ان الله يصنعهم الآن على عينه
من مخاض هذه السنوات العجاف؟! .

إن الإصلاح لن يصنعه ابدا جبابرة . . بل ناس فضلاء
بسطاء صادقون .

والله وحده هو مصلح الصالحين . . فكفوا عنا
شماريخكم . . وليصلح كل منا من نفسه ولبيك على
خطيئته . . وليصارع شيطانه . . وليكبح شهواته . . وليطهر
غايته . .

ولا يذهبن الغرور بأحد فيظن أنه يمكن ان يصلح العالم
بضربة شمروخ فى يوم وليلة . . فتلك مراهقة سياسية .

وإذا ظن أحدكم أنه فاعل ذلك . . فليعد القراءة فهو غالبا
واحد من العصابة التي تحدثت عنها . . عصابة الأيدي
الخفية . . ونفسه الطامعة فى السلطة تخدعه دون ان يدري . .

وهو يريد ان يقفز على أكتاف الكل باستخدام اجنحة
الإيمان وشعاراته دون ان يملك اى شىء من جوهر ذلك
الإيمان ونقائه .

اننا نسير على الشوك . .

والاعداء من حولنا . . والاعداء فينا . .

وأحيانا تكون نفوسنا أشد عدواة لنا من الكل .
وقد تساعدنا فى مسيرتنا جلسة محاسبة مع نفوسنا كل ليلة
قبل أن نغمض عيوننا لننام . . نراجع فيها ما قدمنا من خير . .
ونزن بميزان دقيق محايد كل ما فعلناه فى يومنا .

وفى الحديث الشريف :

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا» .

ودنيا اليوم التى تنهار فيها القيم ويتهددها المغيرون من كل
اتجاه فى حاجة الى تلك الحراسة الساهرة . .

فما أكثر ما يكون المعتدى عليك هو أنت نفسك . .
والأيدى الخفية هى يداك ذاتهما . . تعطلان تقدمك وتوقان
سيرك .

عنه الغزو الفدري..
والحرب الخفية وراء اللوالبس.

وقفت طويلا امام حديث اذاعى
لوزير الثقافة فاروق حسنى . . تسأله
المذيعه : ما رأيك يا سيادة الوزير فى
الغزو الفكرى ومخاطره؟ فيجب الوزير
فى ثقة : لا مخاطر من أى لون من الغزو
الفكرى . . ويا مرحبا بالغزو الفكرى فى كل وقت وفى كل
مكان . . والتخوف من الغزو الفكرى والغزو الثقافى . . هو
تخوف بلا أساس .

ولن أجيب مباشرة ، ولكنى سوف أذكر السيد الوزير
بالنكبة الاقتصادية التى اصابت مصر ، وبعجز الميزانية التى
يشكو منها هو نفسه . ومن الافلاس المادى لمؤسسات المسرح
والسينما والكتاب . . وأقول له :

هل كان الاقتصاد الشمولى والقطاع العام والتأميم وبقية
أركان الايديولوجية الاشتراكية - التى هوت بمصر الى
الحضيض - إلا غزواً فكرياً ماركسياً قامت به عصابة من اليسار
وتبناه نظام قمعى . وقامت على نشره وفرضه أجهزة إعلام
وأبواق دعاية محترفة وعشرات من الكتاب الذين وهبوا
أقلامهم لفلسفة الكرملين وفكره؟! .!

وأذكره بالدكتور لويس عوض حينما كان يجمعنا حوله فى
الأهرام يعلمنا كيف نفكر ماركسيا . وأذكره بشروحه ومقالاته
فى الصراع الطبقي وفى المادية الجدلية وفى الاشتراكية
العلمية . . وكيف أنها أمل العالم فى التقدم والرخاء والعدالة
وأذكر أنى سألت الدكتور لويس ذات مرة ماذا سيبقى - فى
رأيه - من الانسان بعد موته؟

فأجاب فى ثقة عجيبة : لا أكثر مما يبقى من حمار نافق
يتعفن فى حفرة .

وسألته رأيه فى الكتب السماوية . . فقال فى يقين : هى
أشعار بعضها جيد وبعضها ردىء .

وكان كلامه استمرارا للدعوة سلامة موسى منذ خمسين سنة
حينما أجاب عن نفس السؤال قائلا :

جميع الكتب المقدسة سواء عندى ، ويستوى معها عشرات
المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب .

انه تيار واحد من الغزو الفكرى ظل يعمل فى تغريب العقل
المصرى وتشكيكه فى مقوماته وأديانه ومقدساته منذ أجيال .

ولا أجد تعليقا على هؤلاء المثقفين الأفاضل أفصح من
كلمة نبيهم عيسى عليه السلام فى موعظة الجبل :

« إن كان النور الذى فىك ظلما . فالظلام كم يكون؟! »!

وفى إنجيل متى ١٦ : ٧ :

« هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا؟ »

والحق انهم ما اجتنوا لنا إلا الشوك ، وما زرعوا فى عقولنا
إلا الحسك . . وما كان نورهم الثقافى إلا ظلما . . وما كانت
تقدميتهم إلا تأخرا وهدما أتت به على اقتصادنا من القواعد .

وإذا كنت ياسيادة الوزير تعانى من غول البيروقراطية ومن
فقر الامكانيات ومن الاقتصاد المكبل بالقيود والشعارات فهو
من زرعهم . . ومن أثار غزوهم الفكرى الذى تنكر أثره .

وسوف أدع الموضوع لخبير آخر يدلى فيه برأيه . . هو سيرج
لاتوش الاستاذ بكلية الحقوق بجامعة ليل بفرنسا والاستاذ
بمعهد دراسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية بباريس والخبير
بشون العالم الثالث .

كما عرضه فى كتابه القيم «تغريب العالم»

(L, OCCIDENTALISATION DU MONDE)

والكتاب لم يفت انتباه زميلنا المفكر والكاتب الاسلامى
أحمد عبدالوهاب الذى يعيش معنا نبض العصر . . فطلع علينا

بخواطره العميقة التى ضمنها كتابه «التغريب» معلقا ومحللا
«سيرج لاتوش» فى ذكاء .

نحن إذن أمام كتاب هام تلقى عليه الاضواء . ونحن أمام
شاهد من أهلها . . من بلاد الغزو الثقافى نفسه .

يقول سيرج لاتوش تحت عنوان : «انتقام الصليبيين» (La
. revanche des Croises)

«بعد معاهدة فرساي واقتسام غنائم الامبراطورية العثمانية
قدم الجنرال جورو الى دمشق مؤكدا استيلاء فرنسا على سوريا
ودخل مسجد الامويين حيث يرقد جسد صلاح الدين قاهر
الصليبيين العظيم . . ثم رفس قبره برجله صائحا : صلاح
الدين . . ها نحن قد عدنا .

ويقول سيرج لاتوش بالحرف الواحد : «إن حركة تغريب
العالم هى فى المقام الأول حرب صليبية» .

Le mouvement d, occidentalisation du
monde est d,abord une croisade.

وقديما جاء الاستعمار ليأخذ التوابل والعبيد والذهب
والخامات المعدنية وينزح الموارد ويحتل الأرض . .

وهو الآن يعود بذكاء وفطنة ليحتل العقول بأسلوب آخر . .
هو العلم والتكنولوجيا والاقتصاد والفن والفلسفة .

وفى سوق الإعلام الآن نجد شبكة احتكار لأربع وكالات
هى : الاسوشيتدبرس واليونيتدبرس (امريكا) ورويتير
(بريطانيا) وفرانس برس (فرنسا) .

وكل محطات الراديو وقنوات التلفزيون وكل صحف
العالم تشترك جميعها فى تلك الوكالات، كما يتدفق ٦٥٪
من مواد العالم الاخبارية من أمريكا . . وعلى القمة ترربع
محطة تلفزيون C. N. N العملاقة لتبتلع السوق الاعلامى
كله .

وهذه الدعاية الماكرة . . وهى منحة سخية لا تقاوم . .
سوف تخنق الابداعات الثقافية عند المشاهدين والمستقبلين،
وسوف تفرض عليهم نوعا من السيادة والتبعية بما تقدم من
قدوة فكرية وثقافية للمتلقى .

ولن تكون تلك العقول المستقبلية فى أحسن الأحوال إلا
أسيرة لون واحد من المعلومات . . تأخذ إلهامها من نبع

محدود ييوح بقدر ما يريد السادة الكبار الذين يخططون
لتشكيل تلك العقول من وراء الكواليس .

ان فرنسا تقدم خدمة معلومات مجانية بالأقمار الصناعية
لمحطات الراديو والتليفزيون الافريقية وسوف تجنى ثمن تلك
الخدمات المجانية . . مواقف سياسية وهيمنة وسيادة فكرية .

إن عصر الفاتحين العسكريين وعصر الامبراطوريات الذى
تلمع فيه قيادات كبرى ثم تنطفئ وتغيب . . هذا العصر
انتهى . . وهذه المرة سوف يسيطر الغرب على الكرة الأرضية
الى الأبد . . والاحتلال الثقافى للعقول سيكون احتلالا باقيا
الى قيام الساعة .

وإذا كانت أول حرب صليبية قد قام بها القديس يونيفاس
٦٨٠ - ٧٥٤ ميلادية لتنصير السكسون . . ومن بعدها جاءت
الجيوش الاوربية الى القدس . . فإن نفس الحرب مازالت
مستمرة الى الآن ولكن تحت شعارات حضارية مقبولة وتحت
غطاء مشروعات للتنمية وقروض ومنح وبعثات مجانية .

ولكن يظل الهدف واحدا . . هو طمس الهوية ومحو
الأعراف والتقاليد المحلية ، وتذويب البنية العقلية السلوكية فى

مقابل تكنولوجيا براءة ودمى الكترونية وجنات من الإباحية
الجنسية والحريات العبيية .

وسوف تكتشف البلاد النامية - بعد فوات الأوان - أنها
ما أخذت فى مقابل روحها التى أعطت الا كومة من البضاعة
الخردة سوف يعلوها الصداً .

ثم يقولها سيرج لاتوش بصراحة :

L.occodentolisation du monde a ete tres long.

temps, et n,a pas totalement cesse d,etre, une
christianisation.

«ليس وراء هذا التغريب الثقافى إلا نفس محاولات التبشير
القديمة» .

وهذا كلام سيرج لاتوش بحروفه وليس كلامنا . .
ومسيحية الغرب فى هذا السباق تقف ضد مسيحية الشرق .
وكنيسة الغرب تقف ضد كنيسة الشرق . وبين الكاثوليكية
والارثوذكسية من الخلافات ما هو معلوم .

والحق اننا قد اكتشفنا بالفعل وبعد فوات الأوان اننا لم
نكسب منذ الستيات الا أفكارا خردة هى البضاعة الاشتراكية

الخاسرة التى أعلن أصحابها فى الكرملين أخيراً بوورها
وخسارها . وأنا قد هدمنا بيتنا الاقتصادى على رؤوسنا بلا
مقابل .

وقد سكنت الكتيبة المقاتلة من اقلام اليسار التى كانت تملأ
الساحة فى الستينات بالألفاظ الطنانة الرنانة . . فقدت البوصلة
والمؤشر والاتجاه . . وصدمتها النهاية المفاجئة التى كانت اشبه
بالجلطة والشلل الرباعى فانهارت فى مكانها فاقدة النطق .

وقد استهوتنى تلك الألفاظ الطنانة الرنانة فى بداية
مراهقتى الأدبية فسرت خلفها مفتونا بضع سنوات ، وكتبت
فى ذلك الوقت كتابى : الله والانسان الذى اختار الشك
والإلحاد طريقا والذى استقبله الرفاق بالاحضان .

وكتب محمود أمين العالم ساعتها : ان هذا الكتاب يبشر
برائد فكرى عظيم . . فلما خرجت عن القافلة وانشقت على
الصف رجمونى بالحجارة . . وقالوا هو درويش مخبول؟

ان تاريخنا يؤكد بالفعل أن الغزو الفكرى حقيقة . كان هذا
الغزو موجودا بقيادة سلامة موسى وشبلى شميل فى
الماضى . . ثم تسلمت الراية كتيبة اليسار بقيادة محمود امين
العالم وعبدالعظيم انيس .

وبعد أن سقطت راية اليسار تسلمت القيادة تيارات عبثية
وسوريالية وعدمية وعلمانية . ثم انفتحت الأبواب والنوافذ .
على تيارات سياسية وفكرية صهيونية وأمريكية . ثم بدأ ينهمر
علينا طوفان ثقافى من الأقمار الصناعية من كل لون . .
واحتلت الشوارع أفلام الجنس والعنف والديسكو .

ولا أقول لسيادة الوزير نغلق علينا الابواب والنوافذ .

ولا أدعو الى العزلة والانغلاق والتفوق .

ولا أدعو لرفض الحضارة الغربية ولا بالحجر على رأى او
اتجاه . . ولا أعيش فى وسواس الحروب الصليبية كما كان
يعيش سيرج لاتوش .

إن مصر فى موقع استراتيجى بين ثلاث قارات : اوربا
وآسيا وافريقيا . . وهى نقطة التحام حضارى ولا تملك
العزلة . . ولا تملك إلا أن تعيش هذا الالتحام على اشده ، ولا
تملك إلا أن تفتح عليه من كل الاقطار . ولكن لا بد أن نضع
على عقولنا مصفاة ناقدة ترشح وتنقى وتجادل وتناقش كل ما
يلقى اليها . لا بد أن نعيش فى رباط . . ونضع على ثغورنا
الشرطة والعيون .

شرطة عقلية لا شرطة قمعية .

وعيون تأملية لا عيون بوليسية .

وحراسة جدلية لا حراسة عسكرية .

حراسة تناقض الفكر بالفكر . وتقابل النظر بالنظر .

التعددية الفكرية مطلوبة . فالله أراد للعالم أن تكون مائدة
غنية متعددة المآكل والمشرب ليبتلى اختيارنا ومواقفنا . ولو
كانت هناك فكرة واحدة سائدة لما كانت لحياتنا معنى .

والاسلام كفكر لا يخشى الالتحام ، ولا يهاب المواجهة ،
بل إن نقاء جوهره لا يظهر إلا بالالتحام . وطاقاته لا تنقذ إلا
بالاحتكاك . وقوته لا تتجلى إلا بالتحدى ، ورأيه لا يسود إلا
بانكسار الآراء الأخرى في معارك حرة محايدة .

فأنا مع الانفتاح الكامل . . لكن مع الوعي التام في ذات
الوقت بحقيقة وخطر الغزو الفكرى . . ورفاعة الطهطاوى لم
يفقد نفسه كما فقد سلامه موسى نفسه في باريس . . ولم يفقد
جذوره في أول لقاء مع نيتشه ودارون وماركس وفرويد ، كما
فقد سلامة موسى جذوره . . ولم يقل كما قال سلامة موسى :

«كلما زادت معرفتى بالشرق . . زادت كراهيتى له وزاد
شعورى بأنى غريب عنه . . وكلما زادت معرفتى بأوروبا زاد
حبنى لها وتعلقى بها وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها . أريد
من أدبنا ان يصبح أدبا أوروبا . وأريد من نساتنا . أن يصبحن
نساء أوروبا» .

هذا رجل اصابه الطمس الكامل والمحو الكامل ففقد وجهه
وأحشاه وهويته وذاتيته فلم يبق منه شيء . .

وهناك كثيرون يؤمنون بهذا المذهب السلاموني مثل اخواننا
الذين جلبوا لنا بضاعة الاشتراكية البائرة وروجوا لها .

ولكن الأسوياء ينظرون الى كل جديد وافد بمصفاة العقل
وإعمال النظر .

ومن أمثال هؤلاء : رفاة الطهطاوى والشيخ محمد عبده
والعقاد والحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ . هؤلاء رسل
تنوير أخذوا النافع والمفيد من كل جديد، وانتقوا الصالح من
كل حضارة ونبذوا الضار والباطل . فأثمرت أفكارهم فى
النهاية ثمارا مصرية وفاكهة عربية ولم تفقد جذورهم
هويتها . . ولم تفقد صلتها بالتربة العربية ولا بالأرض المصرية
العريقة ولم تنطمس بصائرهم ولم تذب شخوصهم .

ومن هؤلاء كان الشيخ سلامة حجازى وسيد درويش
وعبدالوهاب .

كانوا نجوم تنوير فى الموسيقى وسفراء تجديد فى النغم
أخذوا من الغرب وتعلموا منه دون ان يفقدوا مذاقهم
وشوفيتهم .

وقد احتفظ كل منهم برأسه فى الطوفان الجديد الوافد لأنه كان يؤمن بأنه غنى فى ذاته وأنه يملك شيئاً أصيلاً وأن له حضارته وجذوره وعطاءه .

الإيمان بالهوية الذاتية والشراء الحضارى كان حصنهم وحمايتهم .

واليوم . . الانفتاح أصبح حقيقة . . ولم نعد فى حاجة للسفر الى باريس ، لأن باريس تفتحم علينا غرف نومنا . . وتدخل علينا لندن من تحت الباب وتنقض علينا امريكا من القمر الصناعى .

العزلة غير ممكنة . . والتفوق مستحيل . والرفض غير مجد .

وأيضاً الاستسلام للأفكار الغازية واخذها بالأحضان وتشربها بلا تمييز . . النافع منها والضار هو انتحار حضارى .

ان الموقف السوى هو اليقظة والوعى والايمان العميق بالذات والايمان بالهوية التاريخية . . فمن تلك الهوية التاريخية خرجت انوار النبوات وأشرقت المعارف الالهية على العالم . فكيف نتحول الى اقزام مفتونين امام الدمى الالكترونية واللعب الفضائية الوافدة علينا من الغرب . .

ان لهم علومهم ، ولكن لنا نحن ايضا علومنا . . ولهم
تراثهم . ولنا تراثنا . . ونحن نستطيع ان نضيف اكثر مما
اضافوا .

ومن هذا المنطلق من الندية نستطيع ان نأخذ ونعطى .

ومن هذا المنطلق يثمر تلاقح الثقافات نبثا جديدا .

أما ان ينسحق بعضنا تحت اقدام هذا الغزو الثقافى ،
ويتعطل جهاز الارسال فى مخه ويتحول الى مجرد آلة
استقبال . . فهو الضياع الذى يهدد المنطقة كلها . . وهو الأمر
الذى نرفضه جميعا . .

ولا أظن وزير ثقافتنا الذى يربط على حماية ثغورنا الثقافية
إلا رافضا لهذا الأمر أكثر منا ومستشعرا معنا خطره .

ألم أقل فى بداية مقالى انه هو نفسه يعانى من آثار تلك
الغزوة الفكرية الشرسة التى اصابت المنطقة بحالة من الايدز
السياسى والايدز الاقتصادى جفت فيها ينايينا وأجدبت
مواردنا . . وأصبحنا نتسول المعونات ونسجد القروض .

وهل جاءتنا الأوبرا إلا هدية . . ؟

وهل أنقذ معبد أبو سنبل إلا تطوع دولى .

وهل تنتظر آثارنا المكدسة فى المتحف المصرى إلا حملة
تبرعات أخرى لتنجو من الزلزلة التى تتكدس فيها .

ومثلها لوحات بالملايين والمليارات تتكدس مهملة في
بدرومات .

ومسارح بلا ميزانيات .

وسينما بلا سند مادي .

إن مشاكلنا تصرخ . : والخطر حقيقي .

والغزوة الاشتراكية الفاشلة قد تركت البدن مشلولاً والعقل
معطلاً .

وانهيار الشيوعية في أماكن كثيرة من العالم . . في
روسيا . . في يوغوسلافيا في البانيا . . في أوروبا الشرقية . .
قد ترك فراغاً في هذه الأماكن . . ووجدنا المعونات تتدفق على
هذه الأماكن لتحتل الفراغ .

ويقول سيرج لاتوش : «ان هذه المعونات هي الوجه البريء
الظاهر من القصة» .

ومن وراء المعونات مصالح تسعى لترث الأرض ومن
عليها .

ومن وراء المصالح عقائد وغزو فكري ومنشورات . . وقد
شمنا رائحة تلك الصراعات في أماكن كثيرة . . في
بلغاريا . . فيما حدث من طرد المسلمين الأتراك الذين كانوا
يرفضون تغيير أسمائهم الإسلامية .

وفى البانيا الآن . . فيما يحدث من الحرمان من تسهيلات
الفيزا الا لمن يغير اسمه باسم غير اسلامى ، وفى أندونيسيا بعد
سقوط سوكارنو ، وفى الصومال .

وفى كل بلد يسقط ويتمزق تتسارع القوى المختلفة لترث
الأرض البور والعقول المنهكة وتقدم التسهيلات بشروطها
ومغرياتها .

ولا يوجد دولار ينفق فى مكان إلا وراءه مصلحة ظاهرة او
خفية .

وكل كتاب يحمل فى سطوره هدف صاحبه .

وطبيعى ان يبشر كل كاتب بالعميقة المثلى التى يحلم بها .

ولكن ما هو غير طبيعى بالمرّة أن نقرأ فى غفلة . ونشاهد
فى غيبوبة عقلية كل مادة ثقافية على أنها بضاعة مزجاة لقتل
الوقت والتسلية بلا هدف ولا غاية . . وان نعيش مخدرين
طوال الوقت !!

إنها محاولة من كاتب فرنسى كبير وسياسى محترف
لتفتيح العيون على ما يجرى فى غابة الفكر والثقافة . . وشاهد
محايد من بلاد الغرب التى تصدر لنا الثقافة يقول كلمته .

والتحية واجبة للزميل احمد عبدالوهاب الذى ألقى الضوء
بكتابه «التغريب» على مسرح لاتوش وكتابه القيم . . وعلى
حقل الألغام الثقافية الذى غشى فيه . .

وفى النهاية لا نملك إلا أن ننشر هذه الآراء أمام عينين الوزير
ليرى فيها رأيه . . فهو رجلنا الذى يتصدر موقع المسئولية . .
وهو صاحب القرار وحارس الديار .

المحتويات

* تقديم

* أيام الخوف

* الحرب

* الخروج من . . أوحال الخليج

* المستقبل الملبد بالغيوم

* روسيا . . تتبرأ من اسم لينين

* حكاية الحمار!!

* اليهود . . إلى أين . . !؟

* محراث التاريخ . . ما زال يعمل

* الأيدي الخفية . . !

* عن الغزو الفكرى . . والحرب الخفية وراء الكواليس

رقم الإيداع ٩٧/٤٢٣٨
التقديم الدولي 7-0613-08-977

مطابع دار أخبار اليوم
مجمع ٦ أكتوبر